ظل ساكن ..
ونساء راكضات ..

حنـان شاهين



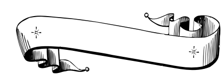
مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : ظل ساكن ونساء راكضات

المؤلف : حنان شاهين

رقم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١٢



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

١

بينما كانت تقف بالقرب من شرفة الفصل تشرح أحد الدروس لتلاميذها لاحظت عصفورا صغيرا حط على غصن شجرة، مكث برهة ثم طار مخلفا وراءه اهتزازت هزيلة مؤكدا أنه كائن حى ...
تأملت ذلك وحاولت أن تتذكر على مدار حياتها موقفا واحدا اتخذته ونفذته بإرادتها فلم تجد .
تسأل نفسها :
- ألهذا الحد أنا لست موجودة ..؟
- ألهذا الحد أنا غير مرئية ..؟
تتذكر ذلك الحلم الذى طالما طاردها فى نومها حيث ترى نفسها فى مرآة كبيرة وإذا بوجهها قد مُسح تماما ومُحيت معالمه فلا فم ولا أنف ولاعينان ، تنظر إلى وجهها فى فزع صارخة :
وجهى .. وجهى .. !
تسأل نفسها :
- ماذا يحدث لو أنى أخبرت زوجى بحقيقة مشاعرى نحوه ؟
- قد تنقلب حياتى رأسا على عقب ..
- ماذا تعنى كلمة قد..؟ أثمة احتمال أن يتفهم ذلك ويعدل من سلوكه معى؟
و إن حدث فهل سيغير هذا من شعورى نحوه ؟
يجب ألا أفكر فى هذا الأمر، وأتذكر فقط أنى أم ،
ترنو بأسى إلى الحائط المقابل حيث علقت صورة فوتوغرافية ذات إطار ذهبى تضم فتاتين صغيرتين كادت ابتسامتهما أن تبعث على استحياء ابتسامة هزيلة على وجهها مالبثت أن خبت بمجرد أن انتقلت ببصرها إلى صورة أخرى مجاورة تضمها و زوجها ، يتجهم وجهها :
- لكنى ما عدت أطيق أن يلمسني .. ما عدت أطيق نفسى عندما أكون مسجاة بين يديه بينما يعبث بجسدى كيف يشاء ، ماعدت أطيق أن يتهمنى بالبرود وهولايعلم أن بداخلى تلك الرغبة المتأججة والتى ما يكاد يقترب منى حتى تنطفئ.

تنظر لوجهها فى المرآة ، تتأمله ، تحرر شعرها ، تشد قميصها حول خصرها من جانبيه وتسحبه إلى أعلى كاشفة عن بعض ساقيها :

- ألستُ جميلة بحق ..؟
- أنتِ بالفعل هكذا..
- حامد لا يقول لى هذا ، أعرف أنه يرغب فىَّ فقط لكنه لا يحبنى ،
- لا يهم أن يحبك حامد .
- ما الذى يهم إذن ؟
- أن تحبى أنت نفسك .
- وهل أنا لا أحب نفسى ...؟
- نعم أنت لا تحبيين نفسك لأنك لم تكونى نفسك .

أفلتت قميصها :

- أنا لست نفسى .. فمن أكون ؟
- أنت أى شئ إلا أمينة.
- أنا أمينة بجسدها وروحها ..
- أنت جسد منتهك ، روح مشوهة مثل إصبع قدمك الذى شوهه صمتك حين كنت تنتعلين حذاءا ضيقا ظل يؤلمك ولم تحاولى أن تخلعيه ، حتى عندما تزوجتِ، تزوجت رجلا ظل يفرض عليك كل شيء ، ويقرر لك كل شئ ، ماذا ترتدين ، منْ تصادقين ، حتى عندما يمارس معك الحب يفرض عليك ما يرغب هو فيه وأنت أبدا لا تعترضين .
- و ماذا بوسعى أن أفعل ؟
- بوسعك أن ترفضى ، تصرخى .
- صرخت كثيرا .
- كان يجب أن تواصلى .
- إلى متى ...؟ إلى الموت ؟!
- وهل أنت هكذا تحيين .. .؟ أنت تموتين فى كل يوم تُلْغَى فيه إرادتك ، تموتين مع كل حصان كنت ترسمينه و تمزقينه .
- كان يجب أن أمزقه لأنى لاأستطيع أن أبث الروح فيه .
- فاقد الشئ لايعطيه .
- ماذا تقصدين ...؟
- أقصد أن تبثى الروح فيك أولا ، هنا فقط يمكنك أن تبثى الروح فى حصانك وفى قلبك و فى حياتك كلها .
- أنا لست إلها لأبث الروح فى أى شيء .
- لايحتاج الإنسان أن يكون إلها لكى يهب الحياة للأشياء .. الحياة تولد بالحب وأنت لم تعرفى الحب .

- حب .. ! الحب فى حياتى مثل العفريت الذى طالما سمعت عنه ولكنى أبدا لم أره

- لو آمنتِ بوجوده وحاولت أن تجديه سوف تجدينه لكنك لم تؤمنى ، ولم تحاولى ، ورضيت ببؤسك وحرمانك .

- لم أرض .

- ولم ترفضى .

* * *

لم تعرف أمينة الحب ، لم تعرف سوى حامد ،

تتذكر تفاصيل ليلتها الأولى معه .. كانت خائفة ، خجلة ، توسلت إليه أن يمهلها بعض الوقت لكنه أجابها :

- لا وقت ، يجب أن يتم الأمر الليلة .

وما هى سوى لحظات حتى تجرد من وقاره الذى ظل يلازمه طيلة مدة خطبتهما ، لم يحاول أن يلمس يديها أو أن يهمس لها بكلمة حب .

صار شبه عار ، بعد أن إنتهى مدّ يده وجذب منشفة قطنية بيضاء وضعت بجوار السرير ، ناولها إياها ثم انطرح بجوارها وهو يتصبب عرقا قائلا :

« مبروك ياعروسة »

ثم ما فتئ يعاود الكرّة حتى كاد الليل أن ينتهى ، وما إن غفت حتى سمعت الزغاريد تقترب شيئا
فشيئا ،

حين دخلت أمها ارتمت فى أحضانها وأخذت تبكى ، شهقت الأم وضربت بيدها على صدرها :

- ألم يحدث .. ؟

- لقد حدث ولكنى أتألم ..

ضحكت الأم ثم قالت : هكذا تكون أول ليلة ،

خرجت من غرفة نوم العروسين تزغرد وتزف البشرى ، تنطلق زغاريد النسوة اللائى رافقنها تباعا لمجرد رؤيتها وهى تطوح عاليا بالمنشفة ذات البقع الحمراء بيد ، فيما ترفع راحة اليد الأخرى أعلى فمها وهى تطلق زغرودة قوية كإشهار رسمى متعارف عليه يؤكد شرف وعفة ابنتها .

تتذكر أيضا أنها عندما كانت طفلة صغيرة وفى ذات ضحى دخلت أمها ومعها امرأة سوداء بدينة مازالت تتذكر اسمها [زين].. نادتها أمها حيث كانت تلهو فى الشارع مع أصحابها ، تأتى وتقف بين يديها ، تمتد يدا أمها وتُنْزل عنها بنطالها قائلة :

- لاتخافى ...

لكنها خافت ، حاولت الإفلات بجسدها النحيل ولكن دون فائدة ، ظلت تصرخ صراخا متتابعا اجتمع عليه الأطفال أمام باب المنزل الذى كان قد أغلق ، تنهرها أمها تارة ، والخالة زين تارة أخرى ، تأمرانها بالكفّ عن الصراخ والتزام الصمت .

صمتت لأنها كانت قد أعياها الصراخ .



عـاد الإصبع الكبير المعوج فى قدم أمينة اليسرى يؤلمها بشدة مما اضطرها للذهاب للطبيب .
سألته إن كان هناك حل يعيد إصبعها إلى وضعه الطبيعى ويجنبها الشعور بالألم ؟ فأخبرها أن عليها أن تتقبل شكل قدمها على ماهو عليه ، وكتب لها بعض المسكنات ، اعتادت منذ ذلك الحين على ارتداء حذاء مفتوح من الأمام والخلف بحيث يسمح لقدميها أن يتحركا بحرية ، لكن برغم ذلك كان الألم يعاودها حتى أنها كانت تمضى معظم الوقت بالمنزل حافية القدمين .
فى إحدى المرات عندما زارتها أمها سألتها عن سبب ذلك فلم تجب ، وإنما بادرتها بسؤال :
- لماذا يا أمى كنتِ تجعليننى أنتعل أحذية ضيقة وأنا صغيرة ؟
- لكى تُبقى قدميك صغيرين ، فالرجل يعجبه قدما المرأة عندما يكونان صغيرين .
- ولكنك بهذا تسببتِ فى إعوجاج إصبعى و شعورى الدائم بالألم .
- أنا أيضا مثلك ، إنظرى إلى قدمى .
- ولماذا لم تتركيهما على طبيعتهما يا أمى ؟
- دعك من هذا وأخبرينى ... لماذا تغضبين زوجك ..؟
- اشتكى لك ؟
- اشتكى لأبيك ، قال إنك لا تعطينه حقه الشرعى .
- ماذا أفعل إن كنت لا أرغب ..؟
- لابد أن تطيعى زوجك فيما يريد واعلمى أنك لن تدخلى الجنة إلا برضاه عنك و...بينما كانت الأم مسترسلة فى توجيه نصائحها المعتادة كانت أمينة شاردة تحدق فى إصبعها المعوج .
على غير عادته عاد حامد متأخرا إلى البيت حيث كانت أمينة جالسة تشاهد التلفاز، أطفأه ، ثم جلس يسألها :
- هل نامت البنتان ..؟
- نعم ... ماالذى أخرك هكذا ؟
- كنت فى مجلس عرفى فى منزل الحاج موافى .
- بخصوص سعاد أيضا ؟
- لاتذكرى اسمها أمامى ، ولا أريدك أن تعرفيها بعد الآن .

- ماذا حدث ؟
- إنها امرأة قليلة الحياء ..
- ماذا فعلت ؟
- عندما سألها أحدنا عن سبب تركها لبيت زوجها و رغبتها فى الطلاق قالت بكل وقاحة « أنه لا يمتعها فى الفراش »
- أقالت ذلك حقا ..؟
- بدون خجل و لا حياء .
- ماذا حدث بعد ذلك ؟
- صمت الجميع فيماعدا أباها الذى سحبها خارج الغرفة ثم ما لبث أن تبعه أخوها ، وأوسعاها ضربا .
- مسكينة ياسعاد .
لم يعجبه تعقيبها على ماسمعته منه فنهرها :
- المسكين هو زوجها الذى انسحب من فوره تاركا الجلسة وقد اكفهر وجهه خزيا .

كان ما حدث من سعاد فى مجلس الرجال فاكهة المجالس التى تجتمع عليها النسوة فى قرية شأنها كشأن سائر القرى التى تتعطش مصاطبها لمثل تلك الأحاديث أما أمينة فقد كانت ترى فى سعاد نموذجا للمرأة الجريئة والواثقة من نفسها .. فهى قبل أن تكون زميلتها فى العمل كانت صديقتها منذ سنوات الدراسة ، فتاة فائقة الجمال ، ذكية ، خفيفة الظل ، محبوبة من كل زميلاتها .

تقدم شاب من أهل القرية لخطبتها ، و ما أن أنهت دراستها الجامعية حتى تم الزواج ، ثم عاشت بعد ذلك بضع سنوات هانئة مع هذا الزوج الذى كانت تحبه ويحبها ولكن هذا الحب لم يصمد أمام رغبته فى الإنجاب فضلا عن إلحاح والديه عليه بالزواج من أخرى .

عندما فاتحها بالأمر ثارت و غضبت و برغم محاولات كثيرة تمت من قبل زوجها و بعض أفراد أسرتها لتقبل فكرة وجود زوجة ثانية له من أجل إنجاب الأولاد إلا أنها أصرت على طلب الطلاق .

ظلت تعانى من حالة نفسية سيئة بعد طلاقها ، ظنت أن وجود رجل آخر فى حياتها قد يخفف عنها بعض حزنها خصوصا بعدما علمت بخبر زواج مطلقها وحمل زوجته الجديدة .

وافقت بعد تردد لم يطل على أحد الذين تقدموا للزواج بها ، شاب سبق له أن تزوج وطلقت منه زوجته لعدم قدرته على الإنجاب حسبما قيل لها .



آوت أمينة إلى فراشها بعد يوم أرهقت فيه جسدها كالمعتاد فى أعمال البيت بصفة عامة وإعادة ترتيب الأثاث بصفة خاصة وكأنها بهذا وبدون أن تشعر تريد أن تؤكد لنفسها أنها قادرة على إحداث تغيير حتى ولو كان هذا التغيير لا يتعدى تحريك قطعة أثاث من مكانها .

لحق بها حامد بعد أن انتهى من دفتر التحضير الخاص به ، وعندما وجدها نائمة ناداها :

- أمينة .. استيقظى .
- أنا متعبة وأريد أن أنام .

تتثاءب وتعاود سحب الغطاء الذى كان يدفعه عنها ويقول :

- لست أريدك فيما تتهربين منه ، إنه موضوع هام ..
- أى موضوع ؟
- أريدك أن تذهبى للخالة زين ...

أمينة وقد اعتدلت جالسة :

- الخالة زين .. ! لم ؟
- لختان حورية .
- حورية .. !
- نعم كان يجب علينا هذا من عام أو أكثر ، أنا نسيت و أنت لم تذكرينى .
- أذكرك ..؟!
- نعم تذكريننى ، مابك يا إمرأة .. أما زلت نائمة ؟

استجمعت أمينة شجاعتها حين تذكرت للحظة ما تعرضت له من قبل و الذى بالطبع لا تريد أن يحدث لصغيرتها قالت :

- أنا متيقظة ولكنى لاأوافقك .
- لاتوافقيننى على ماذا ..؟
- على ختان حورية .
- وهل أستاذن منك فى شرع الله ..؟
- من قال إنه شرع الله ..؟
- إنه سُنْة عن النبى (ص) وطهارة ..
- لاهو سُنْة ولا هو طهارة .. هذه عادة من عادات الجاهلية .
- أجننتِ .. ! استغفرى الله .

- أتريد أن تختتنها ليجئ يوم تتزوج فيه وينعتها زوجها بالبرود مثلما تفعل أنت معى ، دعها على الفطرة التى خلقها الله عليها .
- أأدعها الآن ليفلت عيارها غدا وتأتى لنا بالعار...؟
- العفة شيء نابع من داخلنا وليس من أجسادنا وإلا كان الأحرى بك أن تقتلع عينيها وتصم أذنيها حتى لاترى و لا تسمع ما يثير شهوتها .
- الكلام معك لن يجدى نفعا ، سأحضرها أنا بنفسى .

خشيت أمينة أن ينفذ ما يقول فاستمهلته قائلة :

- أنا فقط أتناقش معك وفى النهاية سأفعل ما تريد .

انتهى الحوار وكانت قد أضمرت شيئا فى نفسها وعقدت عزمها على مجاراته فيما يريد وإيهامه أنها ستفعل ما أمرها به وهى قد انتوت عكس ذلك فجلست مع ابنتها وأفهمتها بما يجب عليها عمله وأن تنام فى الفراش لفترة وتتظاهر وكأنما الأمر سار كما يريد وعندما عاد من العمل أفهمته أن ما أراده قد تم .

* * *

أعجبت أمينة بما فعلت فهذه أول مرة تريد فيها شيئا و تنفذه ، قالت و هى تخاطب نفسها فى المرآة ..

- ها أنا أردت ونفذت ماكنت تريد .
- أنتِ لم تفعلى شيئا سوى أن كذبتِ ، وجعلت ابنتك الصغيرة تكذب أيضا .
- كان مصرا على موقفه ولن يتراجع .
- كنت على صواب وهو على خطأ .
- أنا على صواب مقترن بضعف وهو على خطأ مقترن بقوة .
- كنت قوية عندما أعلنت عن موقفك و كان يجب أن تظلى قوية .
- كنت خائفة أن أدخل فى مواجهة أعلم أنى الخاسرة فيها .
- قاموس حياتك يفتقر إلى معانى كثيرة .
- مثل ماذا ؟

مثل الإصرار، المواجهة ، ... مثل كلمة « لا » التى نسيتها مثلما نسيت الرسم .

- أنا لم أنس الرسم .
- وما أدراك أنك لم تنسه ، ربما تحجرت يدك مثلما تحجرت إرادتك ،
- لا ، لا يمكن أن تتحجر يدى ، يمكننى أن أرسمك الآن ..
- ترسميننى أنا أم أنت ؟
- أنا أنت لا فرق بيننا ..

- ليس هذا صحيحا ، هناك فرق كبير ..
- أى فرق قد يكون بينى وبينك ؟
- أنا لست حقيقة ، سأختفى بمجرد أن تولى ظهرك لى .

* * *

لاحظ حامد أن أمينة عمدت إلى تغطية وجه المرآة بقطعة قماش قديمة كانت فيما يبدو بقايا ستارقديم ، تعجب من تصرفها هذا ، وظن أنها ربما فعلت ذلك لأنه كان يحب استراق النظر فيها عندما يمارس العلاقة الخاصة معها ولهذا كان يتعمد وضعها فى مكان تكون فيه مقابلة للسرير ..

لم يعلق على تصرفها هذا ولم يهتم ، لكنه ثار عندما وجد أن مرآة الحوض الخاصة بالحمام مكسورة أيضا فناداها غاضبا :

- لقد كُسرت المرآة ثانية ، كيف سأحلق ذقنى الآن ؟

اعتذرت له بأنها كُسرت منها بدون قصد أثناء تنظيفها ثم ذهبت وأحضرت له مرآة صغيرة مستديرة بقاعدة بلاستيكية يمكن أن يستعملها أثناء الحلاقة ، تناولها على مضض و هو يتمتم غاضبا ، مندهشا من نزعتها إلى تحطيم المرايا ...

بعد أن انتهى من حلاقة ذقنه وإرتداء ملابسه متأهبا للخروج فاجأها قائلا :

- أريدك أن تتقدمى بطلب إجازة من العمل .

صمتت برهة ثم نظرت إليه فى دهشة :

- هذا قرار مفاجئ ، لم يتبق سوى أيام و يبدأ العام الدراسى الجديد ،
- بيتك أولى بك .
- لكنى أرغب فى مواصلة العمل .
- هذا أمر غير قابل للنقاش .
- لكن ياحامد....
- لكن ماذا .. ؟
- أنت وعدتنى من قبل أنك لن تمنعنى من ممارسة عملى ..
- وعدتك حين لم يكن هناك حورية وحسناء ،
- دعنى أواصل عملى وأعدك أنى لن أقصرفى واجباتى تجاههما أو تجاهك

- مكانك هو بيتك .. وعملك هو تربية أولادك ولا أريد نقاشا فى هذا الموضوع وإلا ستضطريننى أن أجعلكِ تقدمين استقالتكِ نهائيا .

التزمت الصمت خشية أن يزيد كلامها الأمر سوءا وينفذ تهديده ويرغمها على تقديم استقالتها فأظهرت الرضوخ وأضمرت الضيق آملة أن يعدل عن رأيه إذ ظلت تحاول معه باللين و الاستعطاف .

لم تفلح كل محاولاتها في إقناعه بالعدول عن موقفه حتى اليوم الأول من العام الدراسى الجديد فاستأذنته فى الذهاب لتقديم طلب الإجازة كما أمرها .

ذهبت إلى المدرسة وهناك قابلت بعض أصدقائها القدامى وزملائها فى العمل ومن بينهم صديقتها سعاد التى ما إن رأتها قادمة من فناء المدرسة حتى هبطت إليها ، تبادلتا السلام ، أخبرتها أمينة أنها جاءت فقط لتحصل على إجازة مفتوحة .

أبدت سعاد أسفها لما سمعته من صديقتها فيما كان الجرس يدق معلنا عن بداية الحصة فاستأذنتها فى الصعود إلى الطابق الثالث بعد أن طلبت منها الانتظار لبعض الوقت حتى يمكنهما الجلوس و تبادل الحديث معا .

ذهبت أمينة إلى مكتب المدير لتحصل على توقيعه لها بطلب الإجازة ريثما توافيها سعاد بعد انتهائها من أداء حصتها .

كانت تعلم مسبقا أن هناك مديرا جديدا للمدرسة تسلم عمله مع بداية العام الجديد ..

طرقت باب المكتب مستأذنة في الدخول فإذا برجل يبدو في العقد الخامس من عمره، حسن الهيئة، بشوش الوجه، يفوح منه رائحة عطر أخاذ ، صافحها مرحبا :

ـ أهلا أستاذة (نظر فى الورقة الذى ناولته إياها بمجرد دخولها) ...أمينة .

- أهلا أستاذ (نظرت فى اللوحة الخشبية الموضوعة أمامه على المكتب) .. أحمد .

دار بينهما حوار قصير مفاده أنه تمنى أن لو كانت قد جاءت لاستلام العمل حيث يوجد لديه عجز كبير فى عدد مدرسي اللغة العربية .

كان يتحدث بصوت هادئ وعذب و هو يحاول إقناعها بإستلام العمل موضحا أنه لا يُلزم المدرسين بالحضور فى غير مواعيد حصصهم تخفيفا عليهم ...

أمينة تنصت له ، تنظر إليه حينا و إلى آنية زهر يانع عن يمينه حينا آخر .. انتهى من حديثه مؤكدا أن القرار قرارها وحدها فى النهاية ..

كانت لكلماته لاسيما الأخيرة وقعا فى نفسها وهمت أن تخبره بأنها ستستلم العمل لكنها سرعان ما تراجعت حين تذكرت آسفة أن القرار لم يكن أبدا قرارها و أنه أمر قد صدر بالفعل فأخبرته بأنها مضطرة إلى مد الإجازة .

همَّ بأن يوقع لها لكنه أمال القلم جانبا وقد استشعر فى نبرتها شيء من التردد ثم نظر إليها قائلا :

- أرجو أن تعيدى النظر فى طلب الإجازة ، فكرى ولن تخسرى شيئا وإذا ما صممت على طلب الإجازة فسوف أوقع لكِ .

وافقت على اقتراحه وتناولت منه الورقة بدون توقيع وخرجت ،

صعدت السلم متوجهة إلى الطابق الثالث حيث سعاد ، كان قلبها يدق ليس من صعود السلم ، سمعت زقزقة عصافير كانت موجودة طوال الوقت على أغصان الأشجار المحيطة بالمدرسة لكنها لم تكن قد سمعتها من قبل .

إنتظرت فى الردهة بضع دقائق ريثما يدق الجرس معلنا نهاية الحصة ،

لاحظت وجود أحواض الزهر على جانبى فناء المدرسة ، تحاول أن تتذكر هل كانت تلك الأحواض موجودة من قبل أم أنها زرعت فيما بعد ..؟

تقول فى نفسها :

« ربما كانت موجودة قبل ذلك ولكن لم أتنبه لها »

دق الجرس و حين فُتح باب الفصل رأت سعاد و كأنما تملأ كفيها بعدة قبلات وتطوح بها فى الهواء لتنثرها على تلاميذها فتتلقى على إثرها قبلات كثيرة من أكف صغيرة تناثرت فى الهواء متجهة نحوها .

جلست أمينة و سعاد فى غرفة المدرسات تتبادلان الحديث ، تسأل كل منهما الأخرى عن أحوالها ، ثم تطرق الحديث إلى ذكر ماحدث فى مجلس الرجال ..

تسألها أمينة مندهشة :

- كيف أتتك الجرأة لذكر ماذكرته فى جمع من الرجال ؟

- سألونى عن السبب فذكرته بكل صراحة ، أحرام علىَّ أنى قلت الحقيقة أم كان يفترض بى أن أدَّعى عليه كذبا ماليس فيه ...؟

- ليس حراما ولكنه عيبا .

- وما الفرق ..؟

- الحرام هو مانهانا الله عنه والعيب هوماينكره المجتمع علينا

- وإذا حدث تعارض بين العيب والحرام ، أيهما أحق أن أخشاه ؟

- دعكِ من هذا وأخبرينى كيف هى حياتك معه الآن ؟

- حياتى ...

تصمت سعاد برهة ثم تقول وقد شابت صوتها نبرة حزن :

وهنا تنهدت سعاد وراحت تتذكر ذلك المجلس عندما كان مجتمعا فى بيت أبيها ضاما مجموعة من الرجال يسألونها عن سبب تركها بيت زوجها و رغبتها فى الطلاق وكيف شعرت بالمهانة لكونها مضطرة (برغم خجلها) أن تعرى مشاعرها الخاصة أمام هذا الجمع من الرجال ، كانت تعرف يقينا أن أحدا منهم لن يتفهم مشاعرها كأنثى ، و لن يقدر صراحتها التى كانوا قد أثنوا عليها من قبل حين لم تُكذب زوجها فيما قال ولم تنكر كرمه و حسن معاملته ولكنها ما إن ذكرت السبب الحقيقى الذى لأجله طلبت الطلاق حتى تجهم البعض و استنكر البعض الأخر ما قالته .

ربتت أمينة على كتف صديقتها عندما طال شرودها :
- سعاد ..
- هه ؟
- مابك ؟
- لا شيء تذكرت فقط ماحدث ،
صمتت قليلا ثم نظرت إلى أمينة فى أسى :
- أتعرفين كيف يشعر الإنسان عندما تهان آدميته و تقهر إرادته وهو عاجز عن فعل شيء.. ؟
- أعرف .. ولكني أعرف أيضا أنك أقوى و أكثر جرأة ، لطالما كنت كذلك ، أتذكرين الأستاذ محسن مدرس التربية الرياضية .. ؟
تضحك أمينة و تنظر إلى سعاد التى ما إن سمعت الاسم حتى شاركتها الضحك:
- أما زلت تتذكرين ؟
- لقد أدهشتنى جرأتك و أنا أراك توجهين له صفعة قوية على وجهه و أنت تصيحين فى وجهه بأعلى صوتك قائلة « يا قليل الأدب »
عندها وقف الأستاذ مرتبكا و مذهولا وأنت تحدقين فيه بقوة و تتوعدينه بقطع يده لو حاول مسَّ صدركِ ثانية ..
- في المرة الأولى قلت فى نفسى ربما أنه لا يقصد لكنه تمادى و فعلها ثانية فلم أتمالك نفسى من توجيه تلك الصفعة له .
- أتذكرين .. ؟ بعدها عبرت لك عن إعجابى بجرأتك و كانت تلك بداية صداقتنا .
- لم تكن جرأة بقدر ما كان رد فعل تلقائى ، أى فتاة فى مكانى كانت ستفعل نفس ما فعلت .
- ما كنت أظننى قادرة على أن أفعل نفس ما فعلتِ ، أظننى كنت سأخجل و أنزوى وألتزم الصمت .
- ينتهك أحدهم جسدك و تكتفين بالصمت !
- تنهدت أمينة و قد أثارت كلمات سعاد ذاكرة ليست سوى شريط طويل من الانتهاكات النفسية والجسدية والتى لم تستطع على مدار حياتها أن ترفع يدا وتصفع أحدهم بقوة فيما تقول ... إياك أن تمس إرادتى .
لاحظت سعاد شرود أمينة فسألتها مداعبة :
- أين ذهبت ؟
- لم أذهب ولكن يجب أن أذهب .
وقفت ثم همت بالانصراف ، استمهلتها سعاد لبعض الدقائق ريثما يدق الجرس معلنا انتهاء الفسحة .

لم تجلس أمينة و إنما ظلت واقفة تنظر من النافذة و تتساءل :
- هل أحواض الزهورتلك كانت موجودة من قبل ؟
فتجيبها سعاد :
- بالطبع كانت موجودة .
- كيف لم أرها من قبل !
- يحدث أن لانرى الأشياء الأكثر قربا منا .. ربما لأننا ألفناها ، وربما لأن بداخلنا أشياء قاتمة تحجب عنًا الرؤية .

٤

عاد حامد إلى بيته حاملا معه مرآة كبيرة ليضعها أعلى حوض غسل الوجه عوضا عن تلك التي كسرتها أمينة التى ما إن رأته حتى همت لملاقاته عند باب الشقة بابتسامة كبيرة ، ساعدها على التحلى بها ذلك الانتشاء الداخلى الذى تشعر به .
بعد أن ثبت المرآة أعلى الحوض ، تناول غداءه وذهب لأخذ قيلولته ، لحقت به إلى غرفة النوم تحمل كوبا من الشاى بالنعناع الأخضر كما يفضله ، وضعته بجواره ، استبدلت ملابسها ، صففت شعرها وتعطرت على غير عادتها معه ثم جلست بجواره :

- أعجبك الشاى ..؟
- نعم إنه تماما كما أحب ... وأنت أيضا .
- أنا ماذا ؟
- أنت الآن كما أحب .

أمينة وقد بادرته قبل أن يهمّ بها قائلة :

- لم تسألنى عما حدث اليوم .
- ماذا حدث ..؟

قصّت عليه كيف أنها ذهبت لأخذ توقيع مدير المدرسة على طلب مدّ الإجازة تمهيدا للذهاب إلى الإدارة التعليمية بعد ذلك وكيف أنها أعلمت بحاجة العمل إليها لحين إحضار مدرس جديد ، وأن المدرسين أصبحوا يلتزمون فقط بمواعيد حصصهم .
يخبرها بأنه قد سمع بهذا الأمر من قبل فتسأله :

- مارأيك لو أواصل العمل لهذا العام الدراسيى و بعدها أحصل على الإجازة فى أى وقت تريد ؟

يصمت برهة فيداعبها الأمل بأنه قد يعدل عن موقفه الرافض فتسأنف حديثها بصوت هادئ وقد اقتربت منه أكثر :

- أعدك أن لا أقصر فى واجبى تجاهك أو تجاه بيتى ، وإذا صممت على مدّ الإجازة فسأفعل .

صمتت برهة وهى تنظر فى عينيه تترقب رد فعله .
أخذ رشفة من الشاى على مهل ثم قال :

- لامانع إذن من مواصلة العمل مؤقتا لكن توقعى أن تتركيه فى أى وقت إذا عدلت عن رأيى .
- لك ما تريد .

تذهب إلى المدرسة ، تخطو بخفة وكأن رياحا قوية معبأة بعبير رائع تحث خطاها ، حتى وصلت إلى مكتب المدير ، طرقت على الباب تستأذن فى الدخول فإذا بصوت قد أتى من خلفها قائلا ..

- صباح الخير أستاذة أمينة ..
- إلتفتت تنظر إليه ثم ابتسمت قائلة :
- صباح الخير ..

فتح باب مكتبه ودخل داعيا إياها للدخول ، جلس وجلست قبالته ،

سألها عما إذا كانت قد قررت مواصلة العمل أو مد الإجازة ، فأجابته أنها ستستأنف العمل ، ابتسم مبديا ارتياحه لهذا القرار وطلب منها استلام جدول الحصص الخاص بها .

شكرته وانصرفت على حال لم تعهدها في نفسها من قبل ليعاود قلبها الخفقان ، فترى التلاميذ فى فناء المدرسة يتقافزون كفراشات فرحة تتناغم صياحاتهم مع زقزقة العصافير التى سمعتها فقط لتوها ...

أصبحت أمينة أكثر خفة ونشاطا ، صارت أكثر حميمية و هدوءا حتى أنها ما عادت تتحدث إلى نفسها فى المرآة كعادتها ، لكنها بالرغم من ذلك لم ترفع الستار عنها وكأنما هناك شيء ما تتجنب النظر إليه .

- ماذا يحدث لقلبك ياأمينة..؟

كنت تقولين ان الحب كالعفريت الذى طالما سمعت عنه ولم تبصريه ، هل هو ما تشعرين به الآن ؟

أهذا هو الحب ..؟ أيسرى هكذا فجأة في شغاف القلب فيخفق معلنا عن وجوده فى تجويف صدرك مؤكدا أنه مازال حيا وأنه يمكنه أن يدق لشيء غير الخوف الذى لازمك طوال حياتك ؟

تذكرت صغيرتيها ، عاتبت نفسها على هذا الشعور وحاولت مقاومته بكل ماأوتيت من خوف .

كانت تضمهما بقوة كأنما تستقوى بحضنيهما على ذلك الشعور الذى بدأ يعتمل فى قلبها ولسان حالها يقول : ادخلا إلى أعماق قلبى ، إملأه ، لاتتركا فيه ركنا خاليا لأحد سواكما ،

كانت تحتمى بجدران بيتها تستحلفها أن لاتسمح لطيفه ولا لعبيره بالمرور إليها ..

تستجير بأى ذكرى تعدها طيبة لحامد ، بأى كلمة طيبة كان قد نطق بها فى أى يوم فتحاول التشبث بها وترديدها ، تحاول أن تشوش على صورة أحمد التي بدأت تتراءى لها أينما ذهبت ، وعلى صوته الذى أخذ يتردد على سمعها طيلة الوقت.

لا تدرى لماذا تمكن حبه من قلبها بتلك السرعة ، ألأنه صادف قلبا خاليا متعطشا للحب ، أم لأنه يشبه كثيرا فتى أحلام طالما راودتها فى سنوات صباها و لم تتخيل للحظة أنه كان كامنا في أعماق روحها طيلة الوقت دون أن تدرى حتى رأته جالسا فى اطمئنان وثقة أن هناك قوة خفية تعمل عملها فى قلبها الذى لم يسبق له أن مسَّه بشر .

٥

لم يغفر صابر أبدا لزوجته ماذكرته في المجلس العرفي ورأى أن الطريقة الوحيدة والمثلى لاسترداد كرامته والانتقام منها هو أن يتزوج عليها بأخرى ..

تلقت سعاد الخبر بشيء من الدهشة فى البداية ثم أعقبته بشيء من اللا مبالاة عكس ما كان يتوقع منها فلم تثرولم تهتم .

قابل عدم اكتراثها بضيق شعر به فى داخله ولم يبده لها ، أما هى فأرادت أن تبرهن له عدم اكتراثها بطريقة قاطعة وعملية وأنها لاتهتم لأمره بالإضافة إلى أنها فوتت عليه فرصة التلذذ بالانتقام منها وإذلالها أو حتى إثارة غيرتها .

زاد تجاهلها له من إصراره على المضى قدما فيما انتوى وبالفعل تقدم لخطبة فتاة شابة فى بداية العشرينات ، لم يسبق لها الزواج ، على درجة من الجمال من قرية مجاورة .

بنى حائطا فى وسط الشقة الكبيرة التى يعيش فيها مع سعاد مقسما إياها بذلك إلى شقتين صغيرتين ببابين متجاورين بناء على رغبة العروس الجديدة كى تنعم بالخصوصية ،

تعجبت سعاد من أمر تلك العروس الجديدة ، كيف وافقت وأهلها على الزواج من رجل يكبرها بما يقارب الخمسة عشر عاما وليس بالثرى ولا بالوسيم !

تم الزواج ودخل صابر بعروسه ، في حين لم تبرح سعاد شقتها كما اقترحت عليها أمها حين نصحتها بأن تبتعد قليلا فى الأيام الأولى حتى لاينتابها شعور بالغيرة لكنها سعاد أصرت على البقاء فى شقتها بل واستقبال العروس الجديدة استقبالا طيبا تحدث الناس عنه وعن رزانة عقلها وحسن تصرفها .

فى حين أنها لم تفعل ذلك لتحوز على إعجاب ومباركة أى من الناس بقدر ماكانت ترى أن صابر لايعنيها سواء تزوج أم لا ، كما أنها تعرف مسبقا أن حال الزوجة الجديدة حتما ستؤول إلى ما آلت إليه حالها إن عاجلا أم آجلا وهذا ما احتفظت به لنفسها ولم تبده لأمينة عندما سألتها عن كيفية شعورها تجاه مافعله زوجها وإنما أكدت لها أنها تأخذ الأمور ببساطة وتنظر للزوجة الجديدة على أنها أخت لها .

تتعجب أمينة من سعة صدرها مؤكدة لها أنها منذ أن عرفتها وهى مأخوذة بشجاعتها وقوة إرادتها وروحها الطيبة ، فتعلق سعاد قائلة :

- لاتبالغى كثيرا ، إن بداخل كل منا جزءا شيطانيا يزيد وينقص من إنسان لآخر ومن وقت لآخر داخل نفس الإنسان ، الفارق هنا أن هناك من يحاول مقاومة هذا الجزء الشرير فى نفسه وهناك من يستسلم له حتى ويتمكن منه ..

تضحك أمينة مداعبة :

- أفهم من هذا أن بداخلك شيطانا صغيرا ..؟

تؤكد سعاد بنبرة جادة :

- بداخل كل منا شيطان سواء أكان كبيرا أم صغيرا .

أمينة وقد أصرت على مداعبتها :

- وأين الملائكة إذن ..؟

- نائمة فى عيون الأطفال الصغار الذين يجلسون الآن فى انتظارنا .

بينما كانت أمينة تقوم بشرح أحد النصوص الأدبية إذا بأحد الفراشين يطرق باب الفصل مخبرا إياها بأن الأستاذ أحمد ينتظرها فى مكتبه بعد انتهاء الحصة .

طلب الأستاذ أحمد منها أن تستريح .فجلست قبالة رجل يرتدى جلبابا أبيض ، له لحية كثة ، خافضا رأسه بعض الشيء متحاشيا النظر إليها . .

تنظر الى الإستاذ أحمد مستفسرة عن سبب استدعائها فيسألها إن كانت لديها فى أحد فصولها بالصف السادس تلميذة اسمها خديجة سليمان ..؟

تنتظر لحظة تحاول التذكر فيها .. ثم تقول :

نعم عندى تلميذة بهذا الاسم ، ماذا بشأنها ..؟

- هذا والدها يدعى عليك بأنك تبثين فى عقل ابنته أفكارا مناهضة لكتاب الله وتحفزينها على التمرد ..

- أنا .. كيف ..؟

وهنا يتدخل ولى الأمر وبصوته شيء من الحدة :

- أو لست أنت من تخبرينها بأن المرأة كالرجل فى كل شيء ؟

- أنا بالفعل ذكرت أن النساء والرجال متساوون فى الحقوق والواجبات وأن الرجال ليسوا بأفضل من النساء فى شيء.

- كيف يا أستاذة تقولين مثل هذا الكلام ؟ أنسيت قول الله تعالى « وللرجال عليهن درجة » لقد تسببتِ بأفكارك الخاطئة فى تبجح ابنتى وتمردها.

ـ أفكارى ليست خاطئة و أنت من يجب عليه أن يفسر الآية تفسيرا صحيحا .
هنا غضب ولى الأمر وقد زاد صوته حدة و ضرب بيده بقوة على زجاج المكتب قائلا :
ـ إذن فأنت بالفعل تشجعين ابنتى على التمرد ،
ـ بل أعلمها كيف تحترم آدميتها ، ..
وهنا تدخل الأستاذ أحمد قائلا :
ـ هدئ من غضبك يا شيخ سليمان ، الأستاذة أمينة هى واحدة من أكفأ المدرسات بالمدرسة ، ولم تكن تقصد تحفيز ابنتك على التمرد بقدر ما كانت تقصد بث الثقة والاعتزاز بالنفس فى نفوس تلاميذها .
لم يعجب هذا الكلام ولى الأمر واتهمه بالتواطؤ مع المدرسة وأقسم أنه سوف يسحب ملف ابنته من المدرسة كلها وانصرف .
انتهت من يومها الدراسى ، وبينما هى مارة بمكتبه فى طريقها للخروج إذ ناداها :
ـ أستاذة أمينة ..
توقفت فى مكانها ثم إلتفتت إليه و خطت بضع خطوات باتجاهه .
ـ تفضلى بالجلوس دقائق .
جلست قائلة :
ـ أعتذر أننى تسببت فى ...
قاطعها :
ـ لاتعتذرى لأنك لم تخطئى . وأريدك أن تواصلى عملك بنفس الطريقة التربوية المتحضرة ، أنت بحق مدرسة متميزة .
شكرته على حسن تفهمه واستأذنته فى الانصراف ، ومضت بعد أن حركت كلمات الثناء فى نفسها ما كانت تحاول إخماده جاهدة .
تأتى ابتسامته الهادئة كالومض الخاطف يبرق داخل كهف مظلم ، عادت فى ذلك اليوم وبها شيء مختلف ، شيء جعلها تمعن فى الانهماك أكثر فى أعمالها المنزلية بشكل ملحوظ ، صارت خطواتها داخل البيت سريعة و متلاحقة كأنما تهرب من شبح يطاردها .. تنتهى من المطبخ .. تدخل الى الصالة .. ومن الصالة الى غرفة ابنتيها ومنها الى غرفة نومها التى كانت قد رتبتها بالفعل قبل الذهاب الى المدرسة .
نظرت حولها تبحث عن أى شيء تفعله ، لاحظت أن الغطاء الذى غطت به وجه مرآتها قد تغيربالفعل .
خطت نحو المرآة خطوات لم تكن بنفس خفة خطواتها السابقة ، أمسكت بطرف الغطاء وجذبته برفق وظلت تحدق فى المرآة :

- أنت .. !
- نعم أنا ، وهل تغير فىَّ شيء ؟
- ربما ،
- ربما ..! هذه كلمة لاتنفى شيئا ولاتؤكده .
- إذن لا شيء تغير .
- لاشيء تغير فى أنا أم فيك أنتِ ؟
- أنت أنا ، انظرى إنه نفس جسدى ووجهى وعينىَّ .
- لكن عينيك بهما شيء مختلف .
- ربما الكحل ..
- الكحل جمال خارجى ، أما ما أراه فهو بريق بلورة ماسية تلمع فى قاع بئر مظلم ..
- لاأعرف عما تتحدثين .
- أنت تعرفين ولكنك لاتجرئين .
- سأنصرف الآن ...
- تهربين ... ؟
- أهرب .. ! مم ..؟
- الحب لمثلى خيانة .
- إن لم تأكلى وتشربى يذبل جسدك ويمت وإن لم تحبى تذبل روحك وتمت والموت هو الخيانة العظمى للحياة .
- سأذهب لأغسل وجهى .
- اغسليه ألف مرة لن تستطيعى أن تمحى آثار البريق الذى يشع من أعماقك ، سيبصره كل من ينظر فى عينيك .
- هل يبصره حامد ؟
- حامد يرى ولا يبصر .
- إذن فمن ؟ ...

تنزوى أمينة بعيدا عن المرآة ، تقبع صامتة ، تبدو من هيئتها هادئة بينما تتقاذفها أمواج متلاطمة فى بحر من الأفكار والتساؤلات والمخاوف ...

تجلس وزوجها وإبنتاها يشاهدون أحد البرامج على إحدى القنوات التليفزيونية

تنظر حولها ، تتأمل الصورة التى التقطتها عيناها لتعاتب نفسها :

- ماذا ينقصك لتكونى سعيدة ..؟ لماذا لاتكون الصورة بداخلك كما هى أمام عينيكِ ..؟ لماذا تشعرين دائما أن هناك أحدا غائبا وقد ترك مقعده الخالى فراغا كبيرا ابتلع إحساسك بالسعادة والرضا ؟

قاطع شرودها صوت حامد:
« حان وقت النوم » هيا يافتيات إلى غرفتكما ، أطفأ التلفاز وطلب منها أن تلحق به فى غرفة النوم ..
لحقت بـه بعد أن اطمأنت على ابنتيها فى فراشيهما لتجده جالسا فى انتظارها ، نظر إليها نظرة فهمت مغزاها .
مد يده وسحب قميصا من دولاب ملابسها ثم ناولها إياه كعادته معها كلما أرادها ، مدت يدها وتناولت منه القميص ثم دخلت إلى الحمام الملحق بغرفة نومهما .
نظرت إلى القميص تحدق فيه و تقلبه بين يديها :
ـ لن أرتديك ، لاأحب ملمسك .. ولا لونك .. ولا عطرك ، لن أسمح لك بتغليف جسدى بلونك البغيض ، أنت أضيق من أن تحتوينى ، لن ....
ينادى عليها ، يحثها على الإسراع .
لم تنتبه ، مازالت مستغرقة فى إطلاق لاءاتها .
ـ لن أدعك تعبث بى ، لاأحبك ، ولم أحبك فى يوم من الأيام ، لا ...
يقاطعها صوته :
ـ هل غلبك النوم فى الحمام ؟
بعد حين خرجت كما دخلت بنفس ملابسها والقميص مازال فى يدها ، نظر إليها مندهشا و متسائلا :
ـ أهناك عائق شرعى ؟
وكأنما قد أوحى لها بما تقول :
ـ نعم ..
يتأفف ، يمد يده ، يضغط بغيظ على زر النور ساحبا عليه الغطاء .
لم تنم وإنما خرجت بهدوء وأغلقت الباب ، جلست فى الصالة تتأمل ماحولها من جدران ، تتوقف عيناها على صورة زفافها فتحسها و كأنما هى جثة إرادتها وقد صلبت على الحائط ،
تتأملها .. ثمة فراغا يفصل بينهما ، تبدو عيناها فى الصورة تنظر إلى أسفل وكأنما كانت تبحث عن شيء ما سقط منها ولم تجده حتى الآن !
تتذكر لحظة التقاط الصورة عندما طلب المصور منهما أن يقتربا من بعضهما أكثر وأن ينظر كل منهما فى عين الآخر ، لكنهما أبدا لم يفعلا وكأن هوة سحيقة وباردة ومظلمة قد حالت دونهما .
تعاتب نفسها :
ـ لماذا لا أرفض ؟ ،
.. لماذا أهمس دائما ؟ ،
.. لماذا لا أُعلى صوتى وأقول لا لما لا أريد ؟

لماذا لا أخبره أني لا أحبه ، لست سعيدة في حياتي معه ، لم أشعر بالارتواء معه ولو مرة واحدة .. أحقا أنا أعاني من البرود كما يتهمني دائما ؟

أم أن ذلك يعود إلى عدم رغبتي فيه ، كما لم أرغب في زواجي منه ، لم أختره ، ولم أختر أي شيء في حياتي ابتداء من اسمي وصولا إلى أسماء بنتيّ كما اختار لي فرش بيتي و ملابسي ..، ..

هل قهر إرادتي كان هو الثمرة التي ألقت بها شجرة الخوف التي غرست بذرتها في قلبي منذ كنت طفلة ؟

أسئلة كثيرة تعتصرها كأذرع أخطبوط تلتف حول رأسها لاتملك لها دفعا ولا ردا

كما لا تملك ردا لذلك السؤال الذي طرحته عليها سعاد في إحدى جلساتهما معا عندما توجهت إليها كأنما تستجدي بشارة تمنحها الصبر على جفاف ريقها بأن هناك في آخر صحراء الحرمان القاحلة عينا تفيض بالماء العذب ستشرب منها حتى الارتواء وتتلذذ حتى الانتشاء ، فتسألها قائلة :

ـ أسيكون لنا نحن النساء رجال يمتعوننا في الجنة كما للرجال من حور العين ؟

حينها طلبت إليها أمينة خفض صوتها خشية أن يسمعها أحد وأخبرتها أنها لايجب أن تتحدث بمثل هذا الكلام أمام أي شخص آخر .

لم تنس أبدا نظرة سعاد ونبرة صوتها الجادة وهي تقول :

ـ أنا فعلا أريد أن أعرف أسيكون لنا هذا أم لا ؟ أم أن ذلك أيضا مقصور على الرجال ؟

كانت عيناها تلمعان ببريق كأس ملأى ما تكاد تلمسها حتى تنسكب وتتركها أكثر ظمأ ..

٦

تمضى الحياة طبيعة بين صابر وزوجته الجديدة « وردة » مما أثار حيرة سعاد وتعجبها وهذا ما أسرت به لأمينة التي أرجعت السبب إلى أن هذا قد يكون بسبب اختلاف الطبائع فيما بين النساء فما لاتقبله سعاد قد تقبله وردة .

ثم تستأنف أمينة حديثها متسائلة :

- ثم ما أدراك أنها راضية بحالها ؟ .. أليس من الجائز أنها أيضا غير راضية ولكنها تلتزم الصمت وخصوصا أنها كما أخبرتنى أنتِ ليس لها أصدقاء ولا معارف فى البلد فمن أين لك أن تقولى بأن الحياة تمضى بينهما طبيعية ؟

- أحيانا أشفق عليها من وحدتها طوال الوقت وخصوصا أنى لم ألحظ أحدا من أهلها يزورها .

- لماذا لاتتقربين أنت إليها وتحرصين على مودتها ؟

- خطر لى أن أفعل هذا لكنى ترددت ..

- لماذا ..؟

- خشيتُ أن تسيىء فهمى .

- حاولى ولن تخسرى شيئا .

- مارأيك أن تأتى معى لزيارتها ؟

- لامانع عندى ولكن يجب أن أستاذن زوجى فى ذلك .

وكان أن طلبت من حامد الإذن بزيارة زوجة صابر الجديدة فلم يبد معارضة .

ذهبت بعدما هاتفت سعاد وأعلمتها بقدومها ، فتلك هى المرة الأولى التى تزور فيها سعاد فى بيتها .

ألقت أمينة نظرة سريعة على الشقة كما طلبت منها سعاد ، أبدت إعجابها بذوق صديقتها الراقى فى تزيين شقتها الصغيرة التى هى عبارة عن حمام ومطبخ وغرفة نوم واحدة وصالة كبيرة زينتها بمجموعة من أصص الموزاييك نبتت فيها بعض أنواع نباتات الظل التى أضفت جوا من الجمال والبهجة على المكان .

توقفت عيناه أمينة على قفص به عصفوران أخضران من إحدى فصائل الكناريا بعث تغريدهما نوعا من السكينة والرغبة فى الجلوس والاسترخاء ،

دعتها سعاد للجلوس في حجرة الاستقبال جلست أمينة لتجد على يمينها حوضا زجاجيا به مجموعة من أسماك الزينة الملونة ،

تسألها أمينة و هى مأخوذة بما ترى حولها :

- ما كل هذا الجمال الذى تحيطين به نفسك ياسعاد ؟

- أشعر معهم بالصحبة ، عندما أفتح باب الشقة عائدة من العمل أتخيل أنهم ينتظرون عودتي بفرح ولهفة ..

- لكني مشفقة على العصفورين من حبسهما فى هذا القفص الصغير، لابد أنهما يتوقان إلى الطيران فى الفضاء الحر .

- لا أظنهما يتوقان إلى الطيران .

- كيف لايتوقان إلى الطيران وقد خلقا ليعيشا بحرية ؟

- فى البداية عندما اشتريتهما كنت سعيدة بهما أجلس إليهما أمتع أذنيّ بتغريدهما ثم مالثبت أن شعرت مثلك بالشفقة عليهما وبعد تردد لم يطل فتحت لهما باب القفص بعد أن وضعته في الشرفة واختبأت قليلا أراقبهما من بعيد فلم يحاولا الخروج ، تركت باب القفص مفتوحا وذهبت لأعد كوبا من الشاى وعدت بعد حين فوجدتهما ما زالا فى مكانهما ولم يبرحا ،

تستأنف سعاد حديثها و هى تعد لأمينة طبقا من الفاكهة :

ولولا أنى أخشى عليهما من أذى أى حيوان قد يفترسهما لتركت باب القفص مفتوحا طوال الوقت .

- هذا شيء مثير للدهشة .. ربما لايمكنهما الطيران لعلة ما .

تنظر سعاد الى العصفورين فى أسى و تقول :

- وربما لأنهما لم يعرفا الطيران فى حياتهما .

- لا يعرفان الطيران ! كيف وهما طائران ..؟

- لايعرفانه لأنهما لم يجرباه ، إنهما قد جاءا من أبوين أيضا كانا يعيشان في قفص ومنذ ميلادهما وحتى الآن وهما فى قفص ، فمن أين لهما بمعرفة الطيران .؟

- إنها الفطرة يا سعاد .. الطفل يولد من رحم أمه يعرف طريقه إلى حلمة ثديها ، ويعرف كيف يرضع لبنها قبل أن تتفتح عيناه و دون أن يحتاج إلى من يعلمه .

- الطفل يولد من رحم أمه على الفطرة ، كل الأطفال لحظة الميلاد متشابهون في ذلك ولكن يحدث بعد ذلك أن يرضع لبن أمه ، و يتعلم لغتها ، ويتشرب طباعها ، هنا يختلف الأطفال .

- هذا أمرطبيعى يجب أن يرضع ويتكلم ويتعلم الفرق بين الصواب والخطأ .

- وهنا مربط الفرس .

- ماذا تقصدين ..؟

- ماهو إذاً معيار الصواب والخطأ ...؟

- إنه يختلف من بيئة لأخرى ومن زمن لآخر.

- إذن تختلف القيم والقوانين ،وتختلف الثقافات فما هو مسموح هناك قد يكون ممنوعا هنا والعكس صحيح ..

تندهش أمينة مما تسمعه ، فيما تستأنف سعاد حديثها متسائلة :

في بعض الحضارات كانت المرأة تقدس و ينظر إليها على أنها واهبة الحياة و في بعضها الآخر كانت تُورّث مثلها مثل أي متاع كما أقر أرسطو الفيلسوف العظيم الذى كان يحتقر المرأة ويضعها في منزلة واحدة مع ما يمتلك الرجل من متاع ، حتى ان بعض الأديان السماوية تعاملت معها على أنها أقل درجة من الرجل و أنها أصل الخطيئة و الغواية بل وأقر بعضها بضرب الرجل للمرأة ، فأي عدل في ذلك وأي ظلم أكبر من أنها تقابل أحيانا لحظة ميلادها بالأسف فيما يقابل ميلاد الذكر بالفرح ونحر الذبائح و إقامة الولائم .

- عندك حق فكم كنت أذكر حامد بأن الفرح لميلاد الذكر و الحزن و الأسف لميلاد الأنثى من عادات الجاهلية .

- وهل حامد لا يحب إنجاب البنات ؟

- اغتم حامد كثيرا عندما أنجبت حورية ، فقد كان طوال فترة الحمل يناديني بأم حسن على اسم والده وما إن وضعتها وأخبروه أنه صار أبا لفتاة ، لم يستطع أن يخفي حزنه ، في المرة الثانية عندما كنت حاملا في حسناء أصرّ أن يعرف نوع الجنين و هو مازال في رحمي ، وعندما علم بأنها أنثى لم يوارى حزنه ، وإنما جهر به وندب حظه ،

على كل حال نحمد الله أننا لم نولد في ذلك الزمن الذى كانوا يئدون فيه الإناث ويستعبدون فيه النساء .

- ومن قال لك أننا سلمنا من الوأد وأننا صرنا أحرارا ..؟ ، لو كنت حرة لما كُسرت يدى وأنا أحاول التخلص من حياة لا أرغبها ، أنا وإن كنت سلمت من وأد الجسد فلم أسلم من وأد الحرية .

- هذه أول مرة أسمعك تتحدثين فيها هكذا ، يبدو أن دراستك للفلسفة قد جعلت منك فيلسوفة .

- ليست الدراسة بقدر ماهى الحياة .

- الحياة ليست بهذا السوء ولا بهذه القسوة ياسعاد .

- الحياة فى حد ذاتها ليست قاسية وإنما الذين يعيشونها . دعينى أطرح عليك سؤالا.

- تفضلى .

- أسمعت عن فتاة تدعى فؤادة صالح ..؟

- نعم سمعت عنها .

- ماذا سمعت ؟

- سمعت أنها (والله أعلم) فتاة منحرفة ..

- فؤادة كانت صديقة لأخت زوجي الأول ، أنا أعرفها جيدا ، فتاة جميلة في منتهى الطيبة والبساطة وقعت في المحظور حين أحبت شابا كان صديقا لأخيها الأكبر ، أغراها هذا الشاب باسم الحب واعدا إياها بالزواج ثم كان ما كان في مجتمع لا يرحم

أتعرفين ماذا حدث بعد ذلك ..؟

- ماذا ..؟

- تزوج الشاب من فتاة أخرى رحب به أهلها غافرين له ما علموه عنه مبررين ذلك بأنه « طيش شباب » !

بعد ذلك عاش الشاب حياة طبيعية وسط أهله ومع زوجته .. أما هى فقد انضمت إلى قائمة المطرودات من رحمة المجتمع إلى جحيم المجهول .

- لكن مافعلته كان خطأ وحراما .

- أنا معك .. ولكن المساواة في الظلم عدل ، كان يجب أن يحاسب المخطئ سواء أكان رجلاً أو امرأه بنفس المعيار .

- عندك حق ، أخذنا الحديث الشيق ونسينا زيارتنا لوردة

- لحظة واحدة سأصعد إلى السطح ، لأقطف بعض الورود ونأخذها معنا كهدية لها .

- هل تزرعين السطح يا سعاد ؟

- نعم .. أتودين الصعود معى ؟

رحبت أمينة بهذا وصعدت معها لتذهل من جمال ما رأت ، لقد حولت سعاد سطح بيتها إلى مايشبه الحديقة تنظر فى عجب قائلة :

- أكل هذه زهور ونباتات تزرعينها ؟

- مجرد هواية .

توجهت سعاد لقطف بعض الوردات المتفتحة حتى جمعت باقة مختلفة الألوان خصت أمينة منهن بوردة حمراء يانعة ثم هبطتا .

طرقات خفيفة على باب شقة وردة بقبضة يد سعاد ...

انتظرتا برهة .ثم ما لبثت أمينة المتعجلة للعودة إلى بيتها أن طرقت طرقتين أقوى بعض الشيء .

. فُتح الباب فإذا بشابة جميلة ممشوقة القوام ، ذات شعر بنى ناعم منسدل على كتفيها ، ترتدى قميصاً حريريا وردى اللون ، تبتسم مرحبة بهما ثم دعتهما للدخول ، ناولتها سعاد مجموعة الورود التى تحملها وهى تداعبها قائلة :

- جئت لك بباقى أخواتك ياوردة .

ضحكت وردة :

- أشكرك على رقتك .

تبتسم سعاد وتقول :

- أعرفك على صديقتى أمينة ..

ترحب بها وردة :
ـ أهلا بكِ ، تفضلا بالجلوس .
تشكرها أمينة وتجلس قائلة :
ـ سعاد كلمتنى عنك بكل خير وأرجو أن تعتبرينا كأختيك ، ان احتجت أى شيء فلا تترددي فى طلبه .
يمضي الوقت فى حوار متبادل بين ثلاثتهن ثم ما تلبث أمينة أن تستأذنهما فى الانصراف .

٧

عادت أمينة من زيارتها لسعاد و وردة أكثر سعادة لما رأته من نموذج لم تألفه فى الحياة بين ضرتين وكيف كانت سعاد تضرب مثلا رائعا فى التعامل الإنسانى الراقى وكيف بادلتها وردة ذلك بالامتنان الجميل ..
كانت أيضا ما تزال مندهشة مما رأته عند سعاد فى شقتها التى ملأتها بالنباتات والعصافير وأسماك الزينة وكلها أشياء نابضة بالحياة والجمال .
تلك هى سعاد التى طالما أُخذت بشجاعتها وقوة شخصيتها ورقة مشاعرها
يتردد على سمع أمينة حديث سعاد عن الفطرة التى خلق الله الناس عليها وكيف أنهم أفسدوها ..
نظرت إلى الوردة الحمراء التى أهدتها إياها سعاد ، قربتها إلى أنفها ، اشتمت عبيرها ثم نادت حسناء وحين جاءتها قبلتها وساوت خصلات شعرها بأصابع يدها ثم وضعت الوردة الحمراء بينهن فما كان من الصغيرة إلا أن هرولت لتنظر إلى صورتها فى المرآة وحين وجدتها مغطاة نادت أمها :
- ماما .. أزيحى هذا الغطاء ، أريد أن أرى وجهي ، أريد أن أرى الوردة ....
فى صباح اليوم التالي لتلك الزيارة تهاتف أمينة سعاد و تعرض عليها أن تأتى لزيارتها فى أى وقت يناسبها ، تشكرها سعاد و تعدها بذلك ،
تستدرك أمينة قائلة :
- ولكن شقتي ليست بجمال شقتك التى ينبض كل ركن فيها بالجمال والحياة .. أنت بحق تعرفين كيف تصنعين الجمال .
- أحاول بث الحياة فيما حولى لكنى أبدا لا أستطيع أنا أبثها فى داخلى ، كثيرا ما أشعر أنى كشجرة غير مثمرة تساقطت عنها أوراقها فلا ظل ولا ثمر ،
لاشيء أعيش لأجله ..
- أرجوكِ يا سعاد لا تقولى مثل هذا الكلام ، لا أحب أن أراك حزينة هكذا وأنا الذى عهدتك إنسانة تشع بهجة ومرحا .
- أتقصدين أنى أضحك وألقى النكات أحيانا ، هذا قناع أرتديه كلما خطوت خارج بيتى وأخلعه عندما أعود وأبقى وحدي ، لا حب ، لا أبناء ولا حتى زوج
- كيف ؟ وأين ذهب صابر ؟
- صابر لم يأتِ لكى يذهب أنا لا أراه حتى لو كان أمام عينى أقول فى نفسى ربما لو كان معى طفل أحتضنه لما شعرت بوحدتي .
- الأطفال نعمة كبيرة وإن كان الله قد حرمك منها فمن المؤكد أنه عوضك بنعمة أخرى تساويها فالبشر كلهم متساوون فى عطاء الله .

- ليس هذا صحيحا ، انظرى حولك ستجدين أناسا لديهم المال والصحة والجمال والأولاد والحب أيضا ، وهناك على الجانب الآخر أناس حرموا من كل هذا ، قد تجدين من لا مال ولا صحة ولا جمال ولا حب عنده ..
- الرضا والقناعة هما نعمة كبيرة قد تعدل كفة الميزان فلا ابتلاء مع الرضا ولا فقر مع القناعة .
- الرضا ليس خيارنا وإنما هو قدرنا .. ماذا يملك الإنسان إن لم يرض ..؟
- من صبر فله الجنة ..
- ومن لم يصبر فله النار ، ويصير معذبا فى الدنيا والآخرة ؟
- ماذا دهاكِ يا سعاد ! استغفرى الله .
- اعذرينى يا أمينة أنا في ضيق .
- ماذا حدث يا حبيبتى .. أخبرينى ؟
- حدث ما يحدث كل يوم لكنى أحيانا أشعر أنى ماعدت أحتمل تلك الحياة التى لاماء فيها ولا زرع .
- الأمومة أعم وأشمل من أن تلدي طفلا ، إنها استعدادا فطريا للعطاء .. يمكنك أن تمارسى أمومتك مع كل من حولك .. مع تلاميذك ، مع عصافيرك ونباتاتك ، ما الفرق بين أن ترضعى طفلا وأن تسقى حيوانا أو تروى زرعا ؟ أنت فى الحالتين تقدمين لمخلوق ضعيف سببا من أسباب الحياة ، كونى أما كبيرة لكل مفردات الكون من حولك .

٨

يجن الليل وتأوي سعاد إلى فراشها الذي وإن شاركها فيه صابر إلا أنه لم يتسع يوما إلا لوحدتها ،
فراش لم تشعر فيه سوى ببرودة تحيط بها ، برودة لم تكن يوما لتلطف من صهد تلك النيران المتأججة بداخلها إن لم تكن تزيدها شراسة ، فتأوى إلى عالمها الخاص تتلمس ذلك الشعاع الدافئ الهابط إليها من سماء الحلم الرحبة ، عالم افتراضى أبدعه خيالها المتمرس على خلق كل بواعث النشوة ، حيث أن كل شيء مسموح ومهيأ لممارسة طقوس الحب والارتواء من تلك الكأس التى ما دانت لها يوما بين يدى صابر ...
إنه الرجل كما تصبو ، يهمس فى أذنها بما تهوى ، يتلمس تفاصيل أنوثتها ، انعطافاتها ، ...
تستغرق فى تخيالاتها ، ترتشف الكأس عن آخرها ، تنتشي ، لكنها ما إن تنتهى حتى تعود أكثرظمأ ، تمد يدها تتناول زجاجة الماء التي بجوارها ، تعب منها ولكنها أبدا تظل ظامئة .
تلك الخيالات كانت متنفسا لها ، لكنها كانت أيضا مصدرا لتأنيب ضميرها فهى عقب تلك اللحظة التى تستجدى فيها النشوة الكاذبة ترى نفسها إنسانة شهوانية .
فى كل مرة كانت تشعر فيها بالندم و تعزم علي ألا تعود لكنها ما كانت تلبث حتى تعود ، لا تدرى إن كان هذا يعد خطيئة تحاسب عليها أم أنه سياج يعصمها من الوقوع فى خطيئة أكبر ؟
أسرت إلى أمينة ببعض ما يعتمل في صدرها وأفضت إليها بندمها وعجزها عن عدم قدرتها على مقاومة هذا الفعل منها لتجيبها أمينة أن [ليس على النائم حرج].. ترد وبها شيء من الخجل أن هذا لا يحدث فى الحلم وإنما فى اليقظة .
تنكسر نظرتها وهى تتساءل :
- هل أنا شهوانية ..؟
- لا يا سعاد أنت إنسانة طبيعة و ما يعتمل في داخلك إنما هو غريزة طبيعية خلقنا الله بها وحاجة فطرية تماما كحاجتنا إلى الطعام والشراب والتنفس ..
- لا أعرف ماذا أفعل .
- حاولى إقناع زوجك بالذهاب إلى أحد الاطباء وطلب العلاج ، صارحيه برغبتك فى هذا .
- كان بالفعل يذهب ولكنه لم يشأ أن يطلعنى على ذلك .

- وكيف عرفت إذن..؟
- عثرت فى ذات مرة على روشتة طبيب مختص بأمراض الذكورة و العقم .
- معنى هذا أنه يحاول وقد يشفى .
- حتى وإن شفى فلا أظن أن هذا سيغير شيئا.
- كيف ..؟
- صابر له روح وطباع مختلفة عني تماما ، هو طيب لا أنكر هذا ، لكنه هادئ أكثر من اللازم ، دائما صامت ليس بيني وبينه حوار من أى نوع ، يمكنك أن تصفيه بأنه لا لون له ولا رائحة وأنا كما تعرفين متأججة المشاعر .
- إذن أعيدى الكرَّة واطلبى الطلاق .
- لن يكون الأمر بهذه السهولة ، أنت نفسك تعرفين ما حدث لى من قبل .
- الوضع الآن تغير وها هو قد أتى لك بضرة ، هذا حق مشروع لكِ الآن
- من قال إن كل من له حق يأخذه ؟
- حاولى إقناع أمك بهدوء فيما بينك وبينها .
- أمى لارأى لها ولا تستطيع مخالفة أبى فيما يقول .
- حاولى مع صابر ثانية بحوار هادئ ربما يتفهم ويطلقك هو من نفسه بعد أن صارت له زوجة أخري وخاصة أنك تقولين انهما متوافقان معا ، إذن لاداعى لبقائك معه وخصوصا أنه ليس بينكم أولاد .
- أنا أشك في شيء لو تأكد لى ربما تكون مشكلتى على وشك الانتهاء .
- فيما تشكين ..؟
- أشك أن وردة حامل .
- وردة حامل ..؟
- لست متأكدة بعد .
- ماالذى دفعك لهذا الظن ..؟
- إنه الغثيان والدوخة لاحظت هذا عندما كانت تزورنى بالأمس .
- وهل أخبرتْ صابر؟
- لا أعرف، ولكن لو كان علم كنتُ سألحظ ، ستكون فرحته كبيرة بعد أن كاد يفقد الأمل فى أن يكون أبا من زوجتين سابقتين .
- أستكونين سعيدة لأجله ؟
ولم لا ...؟ أنا أتمنى الخير لكل الناس كما أتمناه لنفسى .
- هذه سعاد التى أعرفها .

٩

ما إن فتحت أمينة الباب عائدة من عملها حتى فوجئت بحامد الذى عاد مبكرا من عمله هذا اليوم جالسا فى الصالة يشاهد التلفاز .
ألقت عليه السلام ، استبدلت ملابسها مسرعة وذهبت إلى المطبخ لتحضير طعام الغذاء فدخل خلفها على غير عادته محادثا إيا ها بشأن تقديمها طلب الإجازة فهو لايرغب فى عملها ويود أن يجدها بالبيت كلما خرج منه أو عاد إليه .
التزمت الصمت فهي لاتستطيع الرفض ولا تريد القبول .
طلبت إليه أن يمهلها بعض الوقت حتى ينتهى العام الدراسى على الأقل لتحصل على مكافأة الإمتحانات فلم يعلق .
تناول الجميع طعام الغذاء ، دخلت الفتاتان إلى غرفتهما ودخل هو إلى غرفة النوم
لأخذ قيلولته التى يحرص عليها دائما بينما ظلت هى جالسة فى الصالة بعدما انتهت من بعض أعمالها تفكر فيما يمكنها عمله وكيف لها أن تقنعه بالعدول عن القرارالذى إتخذه بشأن تركها للعمل .
عندما أخبرت أمينة سعاد برغبة زوجها فى ترك العمل والحصول على اجازة مفتوحة أسفت سعاد وطلبت منها محاولة إثنائه عن رغبته .. لكنها أجابتها قائلة :
- إن حامد إذا أراد شيئا فإنه ينفذه .
تذهب إلى مكتب المدير الذى ما إن تقترب منه حتى يعانقها عبيره ويعاود قلبها الخفقان لاتدرى إن كان ابتعادها عنه و عدم تمكنها من رؤيته سيساعدها على التخلص من تلك الرجفة التى تنتابها كلما رأته أم أن هذا البعد سيؤجج مشاعرها أكثر ؟
تقدم له الطلب و تستأذنه فى التوقيع لها متحاشية النظر اليه وكأنما تُعد اختبارا صغيرا لقلبها لترى إن كانت سيمكنها الاعتياد فيما بعد على عدم رؤيته .
تناول منها الورقة مبديا أسفه معبرا عن كونها ستنقطع عن العمل مؤكدا لها أن تلك خسارة كبيرة لتلاميذها و للمدرسة أيضا .
فيما استطاعت أن تقاوم رغبتها فى النظر إليه لم تستطع أن تمنع صوته و كلماته من الانسياب على سمعها و مداعبة قلبها الذى ظل يخفق رغما عنها ضاربا هو الآخر بإرادتها عرض الحائط .

* * *

ما عادت تحتمل يد حامد تعبث في جسدها عندما يرغب في إيقاظ ذكورته الغافية .. ماعادت تحتمل أنفاسه اللاهثة وعرقه المتصبب منه على جسدها ، كثيرا ما كانت تشعر بالغثيان فتذهب مسرعة إلى الحمام تقذف مابجوفها بعدما يقذف هو في أحشائها ليسألها إن كانت حاملا ..؟

هو لا يدري أنها حملت منذ سني عمرها الأولى معه جنينا لم تلده بعد .. جنينا صار أكبر من أن يضمه رحم امرأة ، جنينا يصارع من أجل الخروج ليعلن عن وجوده ،

لا يدري بأنها تحمل فوق رأسها ثقلا أمست تنوء به خاصة بعد أن أجبرها على ترك العمل لتنقض عليها الكوابيس كوحوش كاسرة عرفت الطريق إليها في كل ليلة تنشب فيها مخالبها .

تنام فترى نفسها تمضي في شارع مظلم وموحش فإذا بها تسقط في وهدة عميقة مليئة بماء راكد كريه الرائحة تحاول جاهدة الخلاص ، تمد ذراعيها تبحث عن أي شيء يمكنها أن تتشبث به لكن الأرض زلقة وموحلة ، وإذا بشخص هيئ لها أنه أحمد .. تناديه «خذ بيدي » فلا يلتفت لها ، تعاود النداء ..خذ بيدي ..أنا هنا ، أنا أمينة .. ، يتجاوزها متابعا سيره دون أن يراها ، تعاود الصراخ .. أنا هنا .. أنا أمينة ..أنا أمينة ...!

يستيقظ حامد غير مندهش لأمر قد اعتاده متأففا ضجرا وتستيقظ هي وما زال إحساس البلل والانزلاق يلازمها ، تتحسس جسدها لتتأكد أنها بالفعل دافئة في فراشها .

أمسى حامد منزعجا مما صار يتكرر كل ليلة معها وما إن لاحظت انزعاجه و تأففه حتى استأذنته في النوم منفردة عنه حتى لاتزعجه بفزعها الليلي المتكرر .

لتقضي أول ليلة لها منفردة عنه فمنذ أن تركت منزل والدها لم يحدث أن تنفست بالليل هواء غير الذي يتنفسه ..

في تلك الليلة تراءت لها لمحات من حياتها معه ، تلك التي امتدت إلى إحدى عشرة سنة ، تري أمامها عروسا جميلة رشيقة تدخل ، ترتدي الفستان الأبيض والترحة التللي المزدانة بخيوط فضية براقة نسجت على شكل زهرات صغيرة تناثرت عليها ، تعبر باب شقتها بالقدم اليمنى (كما طلب منها)

خطتْ إلى بيته كهالة من نور قمري أغراه فأعمل فيها سيفه فظلت تنزف نورها حتى استحالت تلك الهالة إلى ثقب أسود ابتلع إحساسها بالسعادة .

تتساءل : أما كان له أن يحتوي ذلك النور ؟

لم يكن الأمر يتطلب أكثر من لمسة حانية و قلب محب ..

ولكن أكان عليه أن يرهق نفسه باستجداء الرضا مما يعتقد أنه ملك له بالفعل ؟

تتذكر حياتها معه و كيف كانت جافة و قاحلة ، تتذكر كم كان حادا و متسلطا حتى في أتفه الأشياء تتذكر كل هذا وتقول في نفسها :

.. لقد وأد إرادتى وأهال فوقها التراب ووطأها بقدميه الكبيرتين بقوة استمدها من كونه رجلا .. قوة توارثها أبٌ عن جد وأورثتنيها أنا أمٌ عن جدة عبر مئات السنين ، لكن لامزيد الآن يا حامد ..

فها هو قلبى ينبض ، مازالت لى حياة ، مازلت أتحدث حتى لو كان هذا الحديث مع نفسى ، مازلت أصرخ حتى لو كان هذا الصراخ في أحلامى ، سأحاول النهوض من تلك الوهدة الموحلة ، سأزحف جاهدة لأصل إلى النهر المتدفق الذى يتراءى لى على بعد إرادة منى ، سأرى وجهى وعينىَّ وأذنى وفمى ، لن تطمس معالمى بعد الآن ،

لن تقتحم جسدى بعد اليوم بتلك الطريقة الغبية ، سأقول (لا) لما لا أريد حتى لو كان ما لا أريده هو أنت ، وستذهل من المفاجأة عندما تكتشف أن إرادتى التى ظننت أن لا وجود لها مازالت على قيد الحياة .

صارت تتهرب منه وتختلق الأعذار كلما طلب منها اللحاق به فى غرفة نومه حتى ضاق بإعراضها وذكرها بأن هذا يوغر صدره وحذرها بأن صبره كاد أن ينفد ، لكنها لم تكترث وظلت على إعراضها عنه .

حتى ذلك اليوم الذى لم يذهب فيه إلى العمل وظل فى البيت ، فى حين ذهبت الفتاتان إلى مدرستيهما ، دخل إليها مبديا رغبته فى مواقعتها ، لم تتذرع تلك

المرة بحجج طالما كانت تتذرع بها من قبل و إنما قالت له :

- لا أريد .

وهمت بالخروج ، إستبقها ، أغلق الباب مسرعا ثم دفعها بقوة نحو السرير قائلا :

- ماذا تظنين أنك فاعلة ؟ أنت زوجتى ولى عليك كل الحق وسأحصل على حقى منك متى شئتُ و أنَّى شئتُ .

- منذ متى وأنت تنتظر إقبالى عليك ورغبتى فيك ، أنت من تغتصبنى فى كل مرة .

ضحك ساخرا ..

- أغتصبك .. !

يعاود ضحكته الساخرة ويضرب كفا بكف مكررا ..أغتصبك !

إذن أبلغى عنى قسم الشرطة ، اذهبى اليهم وقولى لهم إن زوجى اغتصبنى .

- هل معنى أنك زوجى أن تأخذنى بالغصب ؟

- ماذا دهاك يابنت الناس . لست أمينة التى أعرفها ، لابد أنها تلك الملعونة قد حرضتك على التمرد ، تلك إذن غلطتى أنا الذى سمحت لك بزيارتها وصداقتها .

- لادخل لسعاد فيما بيننا .

- اسمعيني جيدا ، علاقتك بتلك المتبجحة قد انتهت من تلك اللحظة ، أقسم أني لو علمت أنك التقيت بها و لو بالصدفة أو هاتفتها سيكون لى معك شأن آخر .

- أنا لم أخترك زوجا و لم أختر أى شيئ فى حياتى سواها و لن أتنازل عنها أبدا مهما حدث .

وهنا انهال على وجهها صفعا وهي تحاول أن تخبئ وجهها بيديها فكانت الصفعات تنهال على رأسها تارة وعلى أذنها تارة ، كان يضرب بكلتا يديه بكل قوته ثم تركها وانصرف ..

كانت تلك هى المرة الأولى التى تتصدى فيها أمينة لإرادة حامد وتعصى له أمرا بشكل مباشر كما كانت أيضا هى المرة الأولى التى يضربها فيها بتلك الطريقة حتى أن أصابع كفه الغليظ تركت أثرا واضحا على وجهها وألما شديدا فى أذنها اليسري وصداعا برأسها .

كانت تجفف دمعها بيد وتضع اليد الأخرى على رأسها حينا وعلى أذنها حينا .

لم تكن تفكر فى شيء سوى الخلاص ...

ولكن كيف ..؟ و هى تعلم أن أباها وإن تأذى لمشهد وجه ابنته فإنه في النهاية سيعيدها إليه مع بعض التوصيات بطاعة الزوج التي هي من طاعة الرب ولن يرى فى هذا عيبا أو نقيصة ، كيف لا و هو الذى لم يكف عن ضرب أمها حتى صارت جدة !

إذن فترك البيت الآن ليس حلا .

تعود البنتان من مدرستيهما تلاحظان آثار الضرب على وجه أمهما وتتساءلان عن عما سبب لها هذا لتخبرهما أنها « اصطدمت بالحائط »

ضمتهما إلى صدرها محاولة السيطرة على دموعها ..

بعد حين عاد من الخارج عابس الوجه ، معقود الحاجبين ، ينظر لها شزرا كأنما يتوعدها بالمزيد ..

تناول هو والفتاتان الطعام ، أما هى فاكتفت بجرعة ماء .

وما إن خرج لبعض شأنه ودخلت البنتان إلى غرفتهما حتى نهضت لمهاتفة سعاد التى ما إن سمعت صوتها عبر الهاتف حتى انفجرت بالبكاء .

حاولت سعاد تهدئتها حتى تسطيع أن تفهم منها ما حدث .

حكت لها ماحدث منه وكيف أنه انهال عليها ضربا ، وأنها لا تعرف ماذا تفعل ، ولا أين ستذهب ..،

تحاول سعاد امتصاص غضبها قدر استطاعتها موصية إياها بالصبر و التحمل وأن تتروى و تفكر بهدوء قبل اتخاذ أى قرار .

تنتهى المكالمة وقد هدأت نفس أمينة بعض الشيئ فيما ثارت نفس سعاد لما لحق بصديقتها ، متعجبة من أمر هذا الزوج الذى يضرب زوجته ليرغمها على الرضوخ لرغبته فى مواقعتها .

تنظر إلى يدها حيث كان موضع الجبيرة و تقول :

- أى قهر هذا ، و أى حياة تلك ؟

بينما هى كذلك إذ دخل عليها صابر فرحا متهلل الوجه قائلا :

- وردة حامل يا سعاد .. وردة حامل ..

فتجيبه دون أن تلتفت إليه « مبروك »

يلاحظ عدم اهتمامها :

- كنت أتوقع منكِ هذا ، هى فى النهاية ضرتك التى ستأتى لى بالولد .. '

لم تهتم سعاد بما قاله صابر فقد كانت ما تزال متأثرة بما حدث لصديقتها والذى ذكرها بما حدث لها من قبل .

...

يذهب صابر لقضاء تلك الليلة عند وردة بدلا من سعاد فهى الآن أحق بالحب والرعاية فيما تبقى سعاد ساهرة ، لن تذهب للعمل غدا فلا ضير إذا من مجافاة النوم بعض الوقت ، تجلس أمام التلفاز بينما تجالسها أفكار ها عن تلك العصا الغليظة التى تعلو رأسها ورأس مثيلاتها طول الوقت و هل يمكن لامرأة مثل أمينة تحطيم تلك العصا أم أن تلك العصا هى القادرة على تحطيم رأسها .

كانت مازالت جالسة أمام التلفاز شاردة فى أفكارها حين دخل عليها صابر عائدا من عند وردة ، لم يقض الليل عندها كما سبق وأخبر سعاد ، سألته عن سبب عدوله عن رأيه فأخبره :

ــ وردة أصرت على عودتى إليك لأن الليلة ليلتك وأقسمت أنها لن ترضى إلا بإقامة العدل ، ثم أردف قائلا :

- أليست طيبة القلب وتحبكِ أنتِ التى لم تفكرى أن تباركى لها حملها ؟

لم تعقب سعاد على تلميحاته وأغلقت التلفاز وذهبت لتنام .

عندما استيقظت فى الصباح صعدت كعادتها تسقى زرعها الذي امتلات به جنبات سطح البيت لتجد أحد أصصها الفخارية المزروعة بشجيرة ورد قد كُسرت ودُهست الوردة التى كانت قد بدأت تفتح قبل أيام ، يبدو أن قدم أحدهم قد دهستها ،

اندهشت كثيرا كيف انكسرت تلك الآنية ؟ وأى قدم تلك التى دهستها ؟ لا صابر ولا وردة يصعدان إلى السطح ولا يهتمان أبدا بالزرع !

هبطت درجات السلم بعد أن سقت نباتاتها ثم ما لبثت أن سألت صابر إن كان قد صعد إلى أعلى السطح ؟ فأجابها بالنفى .

تناولت معه الفطور ثم ذهب لصلاة الجمعة وذهبت هى إلى وردة تبارك لها الحمل وتشكرها عن حسن صنيعها ليلة الأمس ..
طرقت باب شقتها المجاور تماما لباب شقة سعاد ، تفتح لها وردة الباب تفرك عينيها اللتين مازال يبدو عليهما أثر النوم ...
- صباح الخير ياوردة
تتثاءب قائلة :
- صباح الخيريا سعاد ، تفضلى .
- أما زلت نائمة حتى هذا الوقت ..؟
- كنت أشاهد فيلما ونمت متأخرة .
- يبدو أنه كان فيلما شيقا ليجعلك تسهرين هكذا .
- كان كذلك بالفعل .
- جئت أبارك لك الحمل .
- أشكرك ياسعاد .. عقبالك .
- أنا رضيت بما قسمه الله لى .
- سيكون المولود ابننا معا .
- إن شاء الله ، فقط اهتمى بنفسك وانتبهى لصحتك .
- كنت أظن أنك غاضبة منى .
- انا ! لماذا ؟
- لأنك لم تعودى تهديننى زهورك كالمعتاد .
- كنت سأسألك إن كنت قد صعدتِ إلى سطح البيت بالأمس ؟
- لا .. لم أصعد إليه ، لماذا تسألين ؟
لم تشأ سعاد أن تخبرها بشأن الآنية التى كُسرت و الزهرة التي دُهست و إنما احتفظت لنفسها بالشك الذى بدأ يتسرب إلى نفسها عن ماهية هذا الذى تسلل إلى سطح البيت و لماذا ...
قاطعت وردة شرودها :
ما أخبار صديقتك أمينة .. ؟
- بخير .
- لماذا لم تعد تأتى لزيارتنا ..؟
- تركت العمل ولزمت البيت ..
- أبلغيها سلامى إن رأيتها ..
- إن شاء الله .. أستاذنك الانصراف .
عادت سعاد إلى شقتها وما زال يشغلها التفكير فيمن يكون هذا الذى تسلل إلى سطح المنزل ..

تفترض أنه بالطبع لن يكون قد تسلل ليسرق زهرة .. لم تفقد أيا منها سوى تلك التى دُهست وكأن من دهسها ما كان يبصرها لأنه كان يمكنه أن يتفاداها الا أن ... يكون التسلل هذا قد حدث في الظلام ... !

كان هناك خيط واه من الشك بدأ يتسرب إلى نفس سعاد لتقول محدثة نفسها :

ـ حذار من شيطانك يا سعاد ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..

كانت قد قالتها بصوت قد سمعه صابر الذى عاد لتوه من صلاة الجمعة فسألها ... لماذا تستعيذين بالله ، أرأيت شيطانا ...؟

انتبهت على سؤاله الذى بدا من نبرة صوته وكأنه يعنى نفسه ..

ـ لا لم أره ولكنى أشعر بوجوده

قضى صابر ليلته التالية عند وردة وعندما جاء موعد ليلة سعاد أبت عليه إلا أن يقضيها مع وردة فاستجاب لها وذهب إلى وردة التي أبت هى الأخرى وأقسمت عليه أن يعطى سعاد حقها وأن يعدل بينهما ، وأقسمت أنها لن تقبل بغير هذا ، فعاد إلى سعاد التى التزمت الصمت ونامت بعيون مغمضة وأذن منصتة لأى صوت قد تسمعه ليلا ، لم يكن هناك ما يشوش على صمت الليل المطبق على شوارع القرية سوى صوت نباح كلب .

مرّ الوقت واستسلمت سعاد للنوم ربما قبيل الفجر دون أن يسترعى انتباهها شيء ،

تعاود الكرة في الليلة التالية دون أن تسمع شيئا غير معتاد لتظن أنها أولت الأمر أهمية لايستحقها .

« إن بعض الظن إثم » هكذا قالت محاولة إقناع نفسها أن لا شيء يحدث و أنها ربما هي من دهست الوردة دون أن تراها ، ولكن هل كسرت الآنية أيضا دون أن تراها !

تعاود الإستعاذة من الشيطان هامسة في تلك المرة حتى لايسمعها صابر الذى أتى لتوه من عند وردة ليقضى الليلة مع سعاد كما هو العدل الذى أقسمت وردة على إجرائه فيما بينهما .

ينام صابر وبعد دقائق يغط فى نومه كعادته بينما ظلت سعاد ساهرة تشاهد التلفاز ، تبحث بين القنوات عن شئ تشاهده لتجد فيلما عربيا سبق وأن شاهدته من قبل ، لكنه كان قد ترك أثرا كبيرا في نفسها لدرجة أن عينيها قد دمعتا تعاطفا مع تلك المرأة [بطلة الفيلم] التى تعانى الفقر والحرمان ، الفقر لكل شيء والحرمان من كل شئ ،

امرأة يدفعها الجوع وقلة ذات اليد إلى أحد الحقول لتبحث عن شيئ يقتات به زوجها المريض الواهن ، تحفر بكلتا يديها فى طمى الأرض الجاف تبحث عن « جذر بطاطا » لتفاجأ بصاحب الحقل وقد أمسك بها تسرق من حقله فما كان منه إلا أن شمرعن ساعديه القويين ، وأخذ يحفر بفأسه الأرض بقوة حتى صنع وهدة أخرج منها ملء حجرها من جذور البطاطا

و ما ان انحنت أمامه لتجمع تلك الجذورحتى طرحها ظهرا فى تلك الو هدة التى أعمل فيها فأسا حديديا منذ قليل ليعمل فيها هى فأسا من نوع آخر قاذفا بذرته فى رحمها لتنمو جنينا فى أحشائها ، تحمله بعيدا ، تتوارى به تحت ظلال شجرة جميز من شبح عار ومن قيظ نار تلفحها هى ووليدها الذى ما ان استهل صارخا من رحمها حتى أخافتها صرخاته أن تصل إلى سمع أحدهم فكممت فمه براحة يدها لتكتشف من فورها أنها خنقت وليدها خوفا ،

للمرة الثانية تفيض عيناها دمعا وهى تشاهد حال تلك البائسة التى أضاعها الفقروالحرمان بعد أن قيدها الضعف هناك في ذلك الحقل وتلك الوهدة التى استسلمت فيها لقوة ذاك الرجل صاحب الحقل ولضعفها كأنثى أرهقها الجوع والحرمان ..

انتهى الفيلم بعدما انتصف الليل ، آوت الى فراشها محاولة استجداء النوم بلا فائدة أخذت تتمتم ببعض آيات القرآن ربما يساعدها ذلك على الاستغراق فى النوم وبينما هى كذلك إذ ترامى إلى سمعها صوت بدا لها كأنه وقع أقدام تخطو ببطء على سطح البيت ، يقترب الصوت شيئا فشيئا ، يهيأ لها أن أحدهم يهبط درجات السلم ،

تسللت بهدوء متجهة الى باب شقتها محاولة الانصات لمصدر الصوت فإذا بصرير أحدثه باب شقة وردة وكأنما قد فتح برفق وأغلق .

ذهلت سعاد :

يا إلهى ماذا أفعل .. كيف أتصرف ..؟

- سأطرق بابها و أدخل إليها و ..

- لا .. سأنتظر حتى يصعد ثانية .

- لا لا .. لن أقبل بهذا يحدث .

- لكن كيف أتأكد ان هناك غريبا معها فى شقتها ، ألا يمكن أن تكون وردة نفسها هى التى صعدت إلى السطح وعادت إلى شقتها ؟

- لكن ماالذى يجعلها تصعد إليه فى هذا الوقت المتأخر ؟

- ربما كانت تقطف بعض أوراق النعناع لمغص ألمَّ بها .

- وربما لا ..

- يجب أن أتأكد وأخرج من دوامة الشك ، سأذهب إليها ..

- لكن ماذا سأقول لها ..؟

- سأطلب منها قرصا مسكنا للألم ،

فتحت باب شقتها وأغلقته خلفها بهدوء تذكرت أنها نسيت المفتاح بالداخل .

- ياللكارثة .. ماذا سأفعل الآن ؟ صمتت لحظة تفكر ..

- كارثة .؟ ليست كارثة إنها فكرة عبقرية لم تكن تخطر على بالى ، بهذه الطريقة يمكننى الدخول والبقاء عندها لبعض الوقت حتى أتأكد تماما ، ما على سوى أن أطرق الباب ..

تطرق الباب عدة طرقات ، تتسارع دقات قلبها ، عدة طرقات أخرى لكن الباب لم يفتح .. عادت بطرقات متتالية أكثر قوة وقد تأكد لها أن أحدا ما بالداخل فلو كانت وردة من دخلت شقتها للتو فمعنى هذا أنها مازالت مستيقظة ولكانت فتحت بمجرد الطرقات الأولى .

كلما طال انتظارها زاد إصرارها على الدخول وصارت طرقاتها أكثر قوة .. حتى سمعت وردة تسأل فى صوت خافت :

- من ..؟

- أنا سعاد.. افتحى

- سعاد ! ماذا تريدين ؟

- أريد منك شيئا .. افتحى الباب .

فتحت وردة الباب بحيث جعلته مواربا :

- خير يا سعاد ؟

- أريد قرصا مسكنا للألم .

- انتظرى لحظة سأحضره لك .

دخلت وردة وتركت الباب مواربا و لم تدعها للدخول ، فدخلت سعاد خلفها خطت عدة خطوات إلى الصالة ، كانت الإضاءة خافتة ،نظرت باتجاه غرفة النوم كان الباب مغلقا ثم ما لبثت وردة أن فتحته وخرجت منه وأغلقته خلفها و بيدها علبة دواء ، تناولتها سعاد و شكرتها و همت تخطو باتجاه باب الشقة ثم توقفت فجأة و ضربت على صدرها براحة يدها وشهقت :

- نسيت المفتاح بالداخل ..! تضطرب وردة قليلا ثم تقول لها :

- صابر سيفتح لك ..

- صابرينام كالمغشى عليه ، لن يستيقظ بسهولة ، قد يستيقظ الجيران قبله .

وردة وقد بدا عليها الاضطراب أكثر..

- وما العمل الآن ؟

لاحظت سعاد توترها فعاجلتها قائلة و قد أشارت إلى علبة الدواء فى يدها

- ممكن كوب ماء من فضلك ؟

ذهبت وردة لإحضار الماء من المطبخ و بينما هى بالداخل إذ سمعت سعاد تقول لها :

- أشعر بألم شديد ، استأذنك فى أن أستريح قليلا فى فراشك ..

خرجت وردة مسرعة من المطبخ متجهة إلى غرفة النوم كانت سعاد قد سبقتها إليها لترى شكها وقد تحول إلى يقين ماثل أمام عينيها حيث هشام جارهم الشاب طالب الجامعة قد وقف منكمشا بجوار السرير مرتديا فقط سرواله الداخلي وقد أمسك ببنطاله في يده ، يبدو أنه كان يهم بإرتدائه، صُعقت سعاد بما رأت ، تسمّر الثلاثة فى أماكنهم ، وردة على الباب وسعاد بالداخل والشاب قد تراجع إلى الخلف حتى التصق ظهره بالحائط وقد تدلى البنطال من يده .

مـرت لحظـات دون أن ينطـق أو يتحـرك أحـدهم مـن مكانــه ، حتــى استجمعت وردة أنفاسها لتقول بصوت منكسر ومتقطع :

ـ أرجوك يا سعاد لاتفضحينى ، أتوسل إليك .

اقتربت منها تحاول تقبيل يدها ، تراجعت سعاد للخلف وقد وجهت نظرة إلى الشاب مشيرة إليه بالخروج ، ارتدى بنطاله مسرعا فيما حمل قميصه وحذاءه فى يده وخرج مهرولا .

أخذت وردة فى البكاء بين يدى سعاد تشكرها وتقسم لها أنها لن تفعل هذا ثانية .

خرجت سعاد من عندها متجهة إلى باب شقتها الذي كانت تدقه بكلتا يديها حتى يستيقظ صابر ، و بينما هى تدق الباب بقوة محدثة جلبة كان قلب وردة يرتجف حتى كاد أن يتوقف خشية أن تخبرزوجها بما رأت ، فتح صابر الباب وهو يفرك عينيه براحته متعجبا ومتسائلا :

ـ سعاد ..! أين كنت ومتى خرجت ..؟

كانت وردة قد ألصقت أذنها على باب شقتها وقد حبست أنفاسها خوفا مما قد تقوله سعاد لزوجها و ما إن سمعتها تقول له كنت عند وردة أسألها على قرص مسكن للألم حتى أخذت نفسا عميقا .

كان قد عاد إلى سريره ليكمل نومه قبل أن تكمل سعاد جملتها ، ولم تمض دقائق حتى عاد يغط فى نومه .

لم تنم سعاد تلك الليلة ، ولم تنم وردة أيضا فقد كانت تخشى أن تغيرسعاد موقفها و تخبرصابر بالحقيقة ، لكنها كانت تحاول تهدئة نفسها قائلة :

ـ لو أخبرته سأنكر .. ليس لديها إثبات ، هى فى النهاية ضرتى ، سيصدق الجميع أنها تغار منى وتكيد لى ..

ظلت تنتظر حتى الصباح تتساءل كيف سيكون وجه زوجها عندما يأتى ؟ أيكون مبتسما ؟ عابسا ؟ ثائرا ؟ لم أره من قبل ثائرا ..

ماذا لو أخبرته هل يطلقنى ، يقتلنى ؟

يمر الليل عليهما طويلا بطيئا كأفعى ملساء تزحف على حائط رخامى قد صقل بحرفية فكأنها لاتبرح وكأنه لايمر .

صابر لم ير تلك الأفعى ولذا فهو يغط فى نومه بينما سعاد شاردة غارقة فى تساؤلاتها :

ـ أيكون حملها من ذلك الشاب أم يكون من صابر ؟

وكيف لى أن أعرف .. وإذا عرفت ماذا يمكننى أن أفعل ..؟

ـ لايمكن أن أصمت ، تلك جريمة .. يجب أن أخبره ..

ـ لا ، لن أخبره ستكون صدمة كبيرة له قد لايتحملها ، وكذلك سأفضح وردة وربما لو علم فإنه قد يقت ل هـ ااا ...! يقتلها ، ياإلهى .. ماذا أفعل ..؟

ليتنى لم أدر .. كنت أريد أن أستريح من الشك ، وها أنا قد استرحت من الشك لتتملكنى الحيرة .

استيقظ صابر فى الصباح ليجدها جالسة وقد بدا عليها أثر السهر والإرهاق ..

فسألها إن كانت مازالت تتألم ؟

فأجابته بأنها بالفعل مازالت تعاني من الألم الذى ألم بها ، عرض عليها إن كانت تود الذهاب للطبيب لكنها رفضت قائلة :

ـ أنا أعرف سبب الألم وسأعرف كيف أعالجه ثم قامت من جلستها تجر خطاها لتحضير طعام الإفطار له لكنه أشفق عليها واستأذنها فى تناول فطوره مع وردة التى وجدها جالسة هى الأخرى وقد بدا على وجهها نفس ماقد بدا على وجه سعاد من علامات السهر والإجهاد ..

هبت واقفة وقد اكفهر وجهها لمجرد رؤيته ، تتأمله تحاول أن تتفحص وجهه الذى بدا هادئا وهو يسألها عما بها وأنها يبدو عليها هى الأخرى أنها لم تنم مثل سعاد

قالت وقد أطمأنت قليلا :

ـ كيف حالها الآن ..؟

ـ أظن انها مازالت تتألم .. ومع ذلك رفضت الذهاب للطبيب .

ـ ستكون بخير لاتقلق عليها ، أنا سأبقى معها لن أتركها إن احتاجت أى شيء

ينظر لها ممتنا ويقول :

ـ أنت طيبة القلب ياوردة وهى أيضا ، أنا أحسد نفسى عليكما .

تأكدت أن سعاد لم تخبره وقالت فى نفسها كم هى طيبة بالفعل ولكن ..

ـ ألا يمكن أن تعدل عن رأيها ..؟

ـ لالا ...لو كانت تريد كشف سرى لفعلت ذلك بالأمس وهشام موجود معى فى الشقة .

ـ ربما خافت أنها لو حاولت إيقاظ صابر أن تتعرض للأذى .

ـ لكنها بالفعل كانت ودودة معى منذ أول يوم .

ـ أتراها ستقبل بهذا وتلتزم الصمت ..؟ لابد وأنها تشك الآن فى أمر الحمل ولابد أنها ستتساءل عمن يكون والد الجنين ..

ـ لماذا الخوف ؟ هى الآن لاتملك لى شيئا ..وإن حدث وتفوهت بكلمة سأقسم على كذبها .

انتبهت من شرودها على نداء صابر لها يطلب منها إعداد الفطور بينما خرج من الحمام ودخل إلى غرفة النوم

بعد أن انتهى من ارتداء ملابسه ' انحنى إلى درج صغير خصص لجواربه وأثناء ذلك لمح على الأرض ميدالية على حرف H تضم مجموعة مفاتيح ، اندهش متسائلا لمن تكون هذه الميدالية ..؟

لاأحد يزور وردة وحتى لو زارها أحد فما الذى سيأتى بميداليته إلى غرفة النوم .
همَّ بأن يناديها ويسألها لكنه تردد ..
دسَّها فى جيبه ، تناول فطوره وذهب إلى مقر عمله بمصلحة الشهر العقارى .
مرت ساعات العمل والسؤال ما زال يتردد فى ذهنه ، عمن يكون صاحب تلك الميدالية ؟ ولماذا لم تنم سعاد ولا وردة فى تلك الليلة ؟
بدأ يتذكر بعض الأشياء المريبة التى ماكان يلقى لها بالا من قبل ، أشياء تافهة لكنه ما إن يربطها بمكان وجود الميدالية فإنها لاتكون كذلك ، يتذكر أنه أحيانا كان يشتم رائحة عطر ليس له ولا لها و كانت عندما يسألها تخبره أنه فقط يهيئ إليه ، كان يصدقها ويكذب أنفه .
.. يحاول أن يسترجع تفاصيل مامر عليه حتى عاد إلى بيته ،
طرق باب شقة وردة فتحت له سألها عن أحوالها وأحوال سعاد وإن كانت قد إطمأنت عليها أم لا ؟
ثم صمت لحظة ونظر إليها يسألها وقد تغيرت نبرة صوته بعض الشيء
- ألم يزرك أحد بالأمس ..؟
اضطربت وتسارعت دقات قلبها :
- لا ، لم يزرنى أحد بالأمس
- ولا أول أمس ..؟
- ومن سيزورنى ..؟
- ربما صديقة لك أو إحدى جاراتك ..
- لا علاقة لى بأى من الجيران ..
- لهذا أود أن تكوِّنى علاقات صداقة مع الجيران .
وردة وقد حاولت إخفاء توترها خاصة بعدما كرر كلمة الجيران :
- أحب ان أكون فى حالى .
- صار لك عام و نصف ولم أر أحدا يدخل أو يخرج من عندك ..
- أحد مثل من ..؟
- أى أحد المهم أن تجدى من يؤنسك أثناء غيابى .
- أكتفى بمشاهدة التلفزيون ...
انتهى الحوار وساد الصمت بعض الوقت .
وردة تخشى أن تكون سعاد قد ألمحت له بشئ ،
ولكن متى حدث ذلك لقد خرج من عندى إلى العمل و عاد منه إلى شقتى مباشرة فمتى تحدثت إليه ..؟

- لابد أنها مجرد أسئلة عادية ولا يقصد من ورائها شيئا..
- لكن نبرة صوته ونظرة عينيه تقول غير هذا .
آه لو أعرف فيما تفكريا صابر ..
***

تجلس سعاد تتجاذبها الأفكار، تقول فى نفسها :
لا يمكن السكوت عن جريمة الله وحده يعلم كم مرة قد ارتكبت وكم من الممكن أن ترتكب إذا التزمت الصمت . لا يمكن أن أصمت ، ولكن ماذا أفعل ؟
لابد أن أجد حلا يريح ضميرى ولا يؤذى أحدا ..
ظلت تفكر ... ، وأخيرا هداها تفكيرها إلى حل مؤقت رأت أنه على الأقل قد يمنع تكرار ماحدث وهى أن تأتى بكلب حراسة وتضعه على سطح البيت .
دخل صابر ليطمئن عليها فطمأنته :
- أنا بخير .. فقط أريد منك شيئا .
- أى شئ ..؟
- قد يبدو لك أنه طلب غريب ..
- تكلمى يا سعاد .
- أريد أن تأتى بكلب حراسة ..
- كلب ؟
- نعم كلب ..
- لماذا ..؟
- الكلب يؤمن البيت ويحميه من اللصوص ..
- لصوص ماذا ...؟
- أى لصوص .. أحضره لى فقط
يصمت برهة يفكر :
آه .... أيها الغبى المغفل ، ألم تفهم بعد..
الأمور بدأت تتضح الآن سعاد دخلت شقة وردة بالأمس تسألها عن قرص مسكن .. ولم تنم طيلة الليل .. لماذا ؟
وإن كان الألم قد أبقاها متيقظة .. فما الذى أبقى وردة أيضا متيقظة طوال الليل ثم هى الآن تطلب إحضار كلب حراسة .. لابد أنها رأت شيئا ولم تشأ إخبارى ثم هذه الميدالية .. يجب أن أتأكد أولا ، لكن
لماذا طلبت سعاد إحضار الكلب فى هذا الوقت بالتحديد ؟
يخرج من شروده ليسألها عن ذلك فتجيبه :
- أهو تحقيق .. هذه أول مرة أطلب منك شيئا وستكون آخر مرة .

- لست أقصد إغضابك ولكن أريد أن أعرف السبب فقط .
- خشيت أن يكون هناك من يتسلل إلى السطح ويسرق أزهارى .
وهنا اتضحت الأمور تماما .. لكن من يكون ..؟
لابد أن اسمه يبدأ بحرف الحاء أو الهاء .. يسترجع أسماء جيرانه الملاصقة أسطحهم لسطح بيته..
من الناحية الشرقية منزل سعد أمين .. هذا رجل مسن يعيش مع زوجته وابنته الأرملة وطفليها ..
من الناحية الغربية الحاجة أم موافي وحفيدها .. « هشاااام» إنه هو .. لأحد غيره الخائنة ، سأقتلها ، سأقطعها إربا هي وذلك الكلب ،
لكن مهلا هذه الأمور لاتؤخذ بالظن يجب أن أتأكد أولا لكن كيف ؟
لابد أن سعاد تعرف شيئا
كانت سعاد قد أحست بما يعتمل فى قلبه فسألته :
- ما بك اليوم أهناك ما يضايقك فى العمل ..؟
- لاشيء سوى أنى أشعر بصداع فى رأسى .
- سلامتك .. أحضر لك مسكنا ..؟
- لاأظنه سيجدى نفعا ، يصمت حينا ثم يسألها :
- أما زلت تريدين إحضار كلب إلى المنزل ؟
- نعم
الا تعرفين أن الكلاب تطرد الملائكة من البيت ؟
- وربما تطرد الشياطين أيضا .
أدرك صابر مغزى سعاد من العبارة الأخيرة وبدأ شكه يتحول إلى يقين من أنها تعلم شيئا ولا تريد إخباره ..
فكر أن يسألها عما حدث فى تلك الليلة لكنه تجنب أن يكون السؤال مباشرا
- مارأيك فى وردة ؟
- بخصوص ماذا ؟
- بخصوص علاقاتها بك و ... بالجيران .
- علاقتها بى طيبة أما علاقتها بالجيران فهى لاتخرج من شقتها .
- ليس شرطا أن تخرج هى ، يمكنهم ان يأتوا هم لزيارتها .
- لا أرى أحدا يدخل او يخرج .
- أهى مثلك ...؟
- ماذا تقصد بالتحديد ؟
أقصد فى علاقتك بالجيران .

- لا أحد مثل أحد .
- أتظنين أنها تحبني .. ؟
- هذا السؤال يجب أن يكون لها وليس لى ..
- وأنت ..؟
- أنا ماذا ..؟
- هل تحبيننى ..؟
- لا أكرهك
- لاتحبيننى ، أعلم هذا ، كنت صادقة معى فى مشاعرك وأعلنت لى عدم رغبتك فى الاستمرار معى .. لكنى أرغمتك على البقاء وها أنا أدفع الثمن ..
- أى ثمن ..؟
- لا تشغلى بالك .. ونامى ..
- أستقضى الليلة هنا ..؟
- نعم
- إنها ليلة وردة ..

لم يرد عليها ونام ليلة لم تسمع فيها غطيطه الذى اعتادته لأول مرة .. كان مغمض العين مستغرقا فى أفكاره السوداء وليلته الأكثر سوادا ..

ظنت سعاد أنه ربما لاحظ شيئا على سلوك وردة لكنها ليست متأكدة تماما من أنه قد علم بأمر تلك العلاقة بين وردة وهشام لذا آثرت الصمت حتى تتكشف أمامها الأمور

لم تره أبدا على تلك الحال من قبل .. كانت تشعر به طيلة الليل يتقلب يمينا وشمالا على غير عادته حتي أذن المؤذن لصلاة الفجر فنهضت ، توضأت وصلت وما إن انتهت من تشهدها حتى ناداها ، دسَّ يده فى جيبه وأخرج الميدالية قائلا :

- أتعرفين لمن تلك الميدالية ..؟

نظرت تتفحص الميدالية التى تتأرجح بين إصبعيه :

- لا أعرف ..
- وجدتها فى غرفة نوم وردة ..
- أليست لوردة ... ؟
- إنها لـ ...

تعثر صوته ولم يكمل جملته ... صمت برهة ثم وجه إليها سؤالا ممزوجا بالاستعطاف .

- لماذا تخفين عنى يا سعاد ..؟
- أخفى عنك ماذا ..؟
- أن وردة تخوننى ..

ارتبكت سعاد بعض الشيء وهى تقول :
- من أين لك هذا الظن ؟
- هذا ليس ظنا ، هى تخوننى وأنت تكذبين علىّ ،
تكلمى يا سعاد ، أخبرينى الحقيقة ، ماذا رأيت فى تلك الليلة .. ؟ لماذا أردت إحضار كلب إلى المنزل ؟ لحماية أز هارك من اللصوص أم لحماية عرضى الذى دنسته تلك الخائنة ..؟
تلك الميدالية لمن ..؟ أليست لهشام جارنا ؟ تكلمى أكاد أجن ...
حاولت أن تهدئ من ثورته قدر استطاعتها فيما يستحلفها أن تتكلم ....
كانت حائرة فهى لايمكنها أن تتكلم ولا يمكنها أيضا أن تستمر فى الكذب عليه فما كان منها إلا أن قالت :
- راقبها إن رأيت منها شيئا طلقها .
- إن راقبتها فيما سيأتى فكيف أراقبها فيما مضى ، كيف سأتأكد أن حملها منى و ليس منه ، أرجوك يا سعاد تكلمى .
كانت كلما راوغته وأشاحت بوجهها عنه جن جنونه أكثر وتأكد له ظنه فهبّ متجها ناحية الباب وهو يقسم أنه سيقتلها ، هرولت سعاد فى إثره تحاول منعه وهو يدق باب شقة وردة بكلتا يديه ثم ما لبث أن أخرج مفتاحه من جيبه و فتح الباب ، اندفع داخل الشقة ، بينما أسرعت وردة تحاول الاحتماء خلف باب غرفة النوم الذى دفعه بكل قوته ثم انهال عليها صفعا وركلا...
تحاول سعاد الحيلولة بينهما فيدفعها بعيدا ويعاود توجيه الضربات لوردة حتى حاصرها فى إحدى الزوايا فيما كانت تصرخ و تستغيث ، ظلت سعاد تحاول جاهدة إبعاده عنها و إعاقته حتى تمكنت وردة من الإفلات منه والهرب خارج باب الشقة ساحبة منه المفتاح الذى كان قد فتح به بعد أن أغلقته عليهما فى الداخل .
هربت وردة ، ذهبت إلى المجهول تحمل فى أحشائها جنينا... لم يدر أبدا أكان هذا الجنين ثمرة خطيئتها هى أم كان ثمرة خطيئته هو ؟
هل كان صابر ضحية وردة أم كانت وردة ضحية صابر الذى سعى للزواج منها انتقاما من سعاد وهو يعلم ضعفه وعجزه عن مجاراتها وإروائها أم أنها كانت ضحية الفقر وقسوة الحياة مع زوجة أب لم تتورع أن تلقى بها إلى أول خاطب بمجرد أن تعهد بكافة نفقات الزواج ؟
أتراها كانت ترسف في نفس القيد الذى ترسف فيه سعاد وأمينة وغيرهما من اللائى يعشن تحت سقف منخفض يحنى أعناقهن ويبقى رؤوسهن منكسة طوال الوقت وليس أمامهن سوى خيارين أما الانحناء وأما الاصطدام بقسوة بهذا السقف الصلب و يتحملن ما قد ينتج عن هذا الاصطدام من جروح وكسور تترك ندوبا واضحة فى نفوسهن وربما أجسادهن ؟

هل كان صابر سيطلق وردة لو طلبت الطلاق ؟

على الأرجح كان سيفعل نفس ما فعله مع سعاد وربما كان أكثر قسوة وأنانية .

سعاد شاردة فى أفكارها .. غارقة فى تساؤلاتها بين ماحدث و ما يمكن أن يحدث ،

أما صابر فقد أمسى على حال غير الحال ، أطلق لحيته ، و صار يتوارى من الناس من هول ما أحاط به ، يتجنب نظرات عيونهم التى يشعر أنها تتبعه فلا تتركه الا لتسلمه لعيون أخرى تظل تتبعه هى الأخرى حتى فى فراشه .

يشعر أنه يمشى بين الناس عاريا ، يحاول مواراة سوأته التى بدت له فجأة على مرأى من الجميع ، يسمع تهامسهم بأذنيه ، يقول فى نفسه ...

حتما هم يتهامسون بما فعلت زوجتي فى فراشى مع ذلك الكلب الذى كان قطعا كان يتفاخر أمام أصدقائه بما فعل مع وردة التى جردتنى من ملابسى قبل أن تتجرد هي من ملابسها و تسلمه مفاتيح مغارتها و لتبثه مالم تبثه لى من شوق و رغبة توسلا إليه ليمنحها المزيد و ... ،...

آه يا صابر .. لكأنى أراك وأنت معلق على الحائط كصورتك البائسة تراقب و أنت الأعزل من غزا أرضك و صال و جال فى منعطفاتها فارتوت منه و آتت طرحها جنينا ينمو فى أحشائها .

أتراها أين ذهبت ...؟ لن أدعها تذهب بفعلتها و لن أدعه ، سأقتله ، لن أقتله مرة واحدة ، هذا لا يكفى ، سأقتله عدد المرات التى ولج فيها بيتى و أخرج فيها لسانه لرجولتى ...

ها هو صابر يمشى هائما و يقبع ساكنا .وينام صامتا فلم تعد سعاد تسمع له غطيطا حتى أشفقت عليه و عرضت عليه أن يحصل على إجازة من العمل و السفر إلى أى مكان ليريح أعصابه .

لم تحاول تأنيبه و لا لومه على ما سبق و فعله معه كما كانت تفكر لتقول فيما بينها و بين نفسها : يكفى ما هو فيه ،

ظل صابر يبحث عن وردة فى كل مكان يتوقع أن تكون ذهبت إليه بلا جدوى فما كان منه إلا أن ذهب إلى المأذون الذى زوجهما من قبل و حرر قسيمة طلاقها ليعود فى ذلك اليوم شبه مغيب ، و كأنه لا يرى و لا يسمع إلا ذلك المشهد الذى يُعرض بداخله ليل نهار

حتى أن سعاد عندما كانت تتحدث إليه محاولة تهدئته تظنه لا يراها ولا يسمعها ، يبدو وكأنما ينظر إلى لا شيء.

كان حديثا قد جرى بين سعاد وأمينة على خلفية ماحدث مع وردة لم تفصح فيه سعاد عن السبب الحقيقى لإختفاء وردة و لم تشأ أمينة أن تخبر سعاد بما كان يتهامس به الناس عن علاقة آثمة وخيانة كانت تتم فى جنح الظلام فى منزل صابر عبد المولى و عن جار يتسلل إلى منزل جاره ، كان التهامس هذا أحيانا يطال وردة وأحيانا أخرى كان يطال سعاد التى لم تنس بعد مصاطب القرية ما تجرأت وذكرته فى مجلس الرجال .

أما أمينة التى كانت تثق تماما فى صديقتها الأثيرة لم تتأثر بما كان يتطاير إلى سمعها مما يسوؤها عن صديقتها ولم تشأ يوما أن تنقل لسعاد تلك الإشاعات حرصا منها على عدم مضايقتها بمثل هذا الهراء .

لكنها حين سمعت بأمر اختفاء أو بمعنى أدق هروب وردة لم يكن من الصعب عليها أن تخمن السبب الحقيقى وراء هروبها ، وتأكد لها صدق إيمانها بنقاء وطهارة صديقتها الحميمة .

عادت أمينة إلى منزلها عقب زيارتها لسعاد و صورة وردة تتراءى أمام عينيها وصوتها يتردد على سمعها .. تتأمل ماحدث و تتساءل فى نفسها :

هل عشقت وردة ذلك الشاب عشقا جعلها تمنحه جسدها أم أنها كانت مجرد الرغبة فى إطفاء نيران شهوتها التى عجز الزوج عن إطفائها ..؟

ولكن ما الفارق ..؟ تتساءل أمينة فى نفسها :

- هل يبرر الحب الخيانة ..؟

أم يجعلها خيانة مزدوجة لتكون بذلك خيانة جسدية وروحية معا ؟

تتوقف عند ذكر كلمة «الخيانة» يتبادر إلى ذهنها معنى لم تفكر في من قبل وكأن الكلمة غافلتها وواجهتها بما تعمدت إخفاءه وتمرست على إنكاره حتى عن نفسها ..

أيكون حبها لأحمد نوعا من أنواع الخيانة حتى ولو لم يعرف بأمر ذلك الحب سوى قلبها ؟

١٠

سمعت أمينة ضجيجا فى الشارع ، نظرت من الشرفة لتستبين الأمر، سألت أحد المارة وهو يمضى مهرولا ..
ـ ماذا هناك ..؟
فأجابها :
ـ حادث سيارة عند المزلقان ..
بادرته متسائلة : سيارة من ؟
كان المهرول قد مضى ولم يجبها .
تتساءل فى قلق لاتدرى مصدره .. ياترى سيارة من ...؟
عادت إلى المطبخ لتواصل عملها ،
دق جرس الهاتف فكانت حسناء أسرع إليه من أمها ، تناولت منها السماعة وهى تسألها من المتحدث ؟
فإذا بها سعاد تخبرها أن الأستاذ أحمد مدير المدرسة وقع له حادث سيارة عند المزلقان .
ما إن سمعت أمينة الخبر حتى سقطت جالسة فى مكانها .
نادتها حسناء فى فزع :
ـماما ... ما بك ياماما ..؟
أتت حورية عندما سمعت نداءات أختها لتناديها هى الأخرى فأجابتهما أنها بخير ،
وما إن أعادت سماعة الهاتف إلى مكانها حتى دق جرس الهاتف من جديد فإذا بها سعاد تود الاطمئنان عليها و التأكد من أنها بخير فبادرتها أمينة بالسؤال :
ـ هل أنت متأكدة من أنه هو ..؟
ـ هو من ...؟
ـ أحمد ، أقصد الأستاذ أحمد .
ـ نعم هو وزوجته وولداه ..؟
ـ كيف إصابته ، أقصد إصابتهم ..؟
ـ لاأحد يعرف بالتحديد لكنهم نقلوا إلى المستشفى جميعا .
ـ كيف علمت ؟
ـ إنه صابر كان عائدا من العمل .
ـ سأحدثك لاحقا يا سعاد يبدو أن حامد يفتح باب الشقة ،

دخل حامد بينما كانت تضع أمينة سماعة الهاتف فسألها عمن كان يحادثها ارتبكت بعض الشئ فعاجلها :

- إنها سعاد أليس كذلك ؟ ألم أنهك عن التحدث معها ؟

- كانت تخبرنى عن الحادث ..

لم يهتم بما ذكرته واستطرد :

- لا أريد أن يتكرر هذا .

لم تكن ترغب فى خوض أى حوار فى تلك اللحظة ، يكاد يقتلها القلق حتى أنها لا تريد أن تفكر فى شئ سوى الاطمئنان علي أحمد .

لكن كيف لها أن تطمئن ؟ لاسبيل أمامها مادام حامد موجودا بالبيت .. تخشى أن لا تستطيع إخفاء توترها ،

يمر الوقت بطيئا وحامد ماكث بالبيت ، برغم محاولتها أن تتصرف بطريقة طبيعية إلا أنه سألها عما بها فأجابته إنه ألم ينتابها ، ثم خطرت لها فكرة تمكنها من إبعاده عن البيت لبعض الوقت فطلبت منه أن يأتى لها بنوع معين من الأدوية ربما يساعدها فى تخفيف حدة الألم .

وما إن غادر البيت حتى أسرعت لتعاود الاتصال بسعاد و تسألها عما إن كانت قد وصلتها أخبار جديدة عن الحادث فتخبرها سعاد أنها أجرت قبيل قليل اتصالا بإحدى زميلاتهما فى المدرسة حيث تعمل أختها في مستشفى الطوارئ أخبرتها تلك الزميلة أن زوجة الأستاذ أحمد بحالة سيئة بينما هو أصيب بكسرفى إحدى ذراعيه وبعض الرضوض و الكدمات ، أما الولدان فكانا قد أغشى عليهما حيث كانا فى المقعد الخلفى وهما الآن بخير.

اطمئن قلبها بعض الشئ بعد تلك المهاتفة التى حرصت علي أن تنهيها قبل عودة حامد الذى أتى لها بشريط من الأقراص المسكنة تناولته منه وذهبت إلي المطبخ أفرغت أحد أقراصه وألقت به في السلة وعادت إلى حامد الذى كان قد جلس ليشاهد التلفاز ، يظن من يراها جالسة إلى جواره أنها تتابع معه أحداث مباراة كرة القدم .

تتساءل فى نفسها عن ماهية شعورها نحو أحمد أهو فقط شعورا مراهقا لم تكن قد عاشته من قبل فى صباها سريعا ما سيزول عنها أم أنه الحب الحقيقى الذى لا يصادف القلب إلا مرة واحدة فى العمر ؟ ولم هذا الإنسان وحده دون غيره ؟

هل لأنه مختلف عن زوجها الفظ المتجهم دائما حتى لو كان ينظر لوجهه فى المرآة ؟

زوجها الذى لم يغازلها مرة واحدة ، و لم يخبرها بأنها جميلة سوى مرات قليلة ، والذى لم يتحسس أبدا مدى رغبتها فيه ولم يسألها عن شعورها نحوه وإن كانت سعيدة معه أم لا ، والذى لم يهتم بمظهره من أجلها ولم يفح منه ذلك العطر الذى كان يقابلها ويعانق روحها بمجرد دخولها إلى المدرسة ..

تفتقد ذلك العطر الآن ، تفتقد تلك الابتسامة الحانية والصوت العذب .. تتمنى لو تهب واقفة لتعدو نحوه أينما كان وتمسح بيدها على آلمه فيبرأ ، تتمنى لو يمسح بيده على قلبها لتستريح ، تتمنى لو تقول له أحبك ، تتمنى لو ...

إنها الأمنيات ..! مخلوقات صغيرة وجميلة تحيا وتموت بداخلها دون أن يشعر بوجودها أحد .

انتهت المباراة بخسارة أحد الفريقين أمام الآخر .. دائما هناك خاسر و رابح ،
هكذا الحياة .

يسألها إن كان الألم قد ذهب بعد تناول الدواء فتخبره بأنه قد ذهب .

يأتي الليل طويلا متجهما ، وهى التى طالما كانت تستحلف الشمس بالبقاء فتأبي إلا أن ترحل فى تواطئ أبدى مع الليل الذى دائما ما يلقى بها قهرا فى فراش حامد الذى ما إن استلقت بجواره على السرير حتى بدأ يتحسس جسدها معلنا عن رغبته فيها ' اعتذرت إليه بأنها متعبة ،

بادرها : ألم تخبرينى منذ قليل أن الألم قد ذهب .

فأجابته بأنه قد عاودها لتوه وأنها فقط تريد أن تستدفئ وتنام .

لوى عنقه واستدار وهو يلعن حظة البائس ناعتا إياها بلوح الثلج .

لم تعقب على ماقاله فكم اعتادت سماع تلك العبارات حتى ألفتها .

يعاود الكرّة في الليلة التالية لتعاود هى إدعاد التعب والإرهاق ، ينذرها بنفاد صبره وينذرها متوعدا أنه لا يريد أن تمتد يده عليها ثانية بالضرب ولكنها هى من تستفزه وتثير حنقه عليها .

كانت كل عبارة من عبارات التهديد التى يطلقها بمثابة حجر جديد يزيد من ارتفاع الجدار الذى وُضعت لبنته الأولى فى أول ليلة لهما معا .

صار أكثر عصبية وحدة عن ذى قبل ، صار يمعن فى إصدار الأوامر مهتما بأتفه الأشياء في البيت ، يتحسس ذرات التراب التى من الممكن أن تتراكم على أي قطعة أثاث ليتهمها بالإهمال فى نظافة بيتها ، يدعى فقدان أحد الأقلام أو ورقة ما وضعها هنا أو هناك لينتهى الأمر بوابل من الاتهامات وعبارات التوبيخ .

ضاقت نفسها بما يحدث ، و زاد من ضيقها قلقها على أحمد تود لو تطمئن عليه انتهزت فرصة ذهاب حامد لزيارة زميل له فى بلدة مجاورة ، وذهبت لزيارة سعاد والإفضاء لها ببعض مايعتمل فى صدرها ، ربما تسمع منها خبرا تتمنى أن يكون مطمئنا عن حبيبها الذى زاد شوقها وتعلقها به كونه مريضا و كونها رهينة البيت .

- ماذا بك يا أمينة ؟ سألتها سعاد حين لاحظت شحوب وجهها
- تعبت يا سعاد لم أعد أحتمل الحياة معه أكثر من هذا .

- هل ضربك ثانية ..؟
- لا .. لم يضربنى لكنه توعدنى بذلك إن بقيت على حالى الجديدة معه ..
- وكيف هي حالتك الجديدة معه ..؟
- ما عدت أطيقه أن يلمسنى ...
- صمتت أمينة عن كلام كانت تود أن تفصح عنه ،
لكن كيف .. ؟
وهل يجدر بها إخبار سعاد بأن قلبها متعلق برجل آخر و هى متزوجة .. وماذا ستجنى من وراء إخبارها بذلك ؟
لاحظت سعاد صمتها وحيرتها لتقول لها :
- ترفقى بنفسك لا أظنه سينفذ تهديده ..
أمينة و قد انتبهت :
- من ؟
- حامد ، أهناك شيء آخر يسوؤك ؟
- لا .. لا شئ .. ماذا عنك أنت مع صابر ؟
- أنا أيضا لاشئ ، لاشئ سوى الصمت والكآبة والملل ، حياة أشبه بالموت ...
تتنهد قائلة :
- ماذا نملك غير الشكوى ؟ تعقب أمينة :
- كيف ..؟
- يمكنك طلب الطلاق .. الأمر بالنسبة لك أسهل حيث لاقرابة بينكما ولا أولاد ..
- لقد فعلت ذلك سابقا وحدث ماحدث .
- ربما إن حاولتِ ثانية يستجيب لك .
- أحيانا أجدني خائفة .
- خائفة ! من أى شيء ؟
- من كل شيء ، من الناس ، من أهلى ، من مجرد إحساسى بالفشل ،
صابر برغم كل شئ إنسان طيب وكريم ، أقول لنفسي : لايهم الحب فكم من أزواج يعيشون معا بلا حب ، ولكن أعود فأقول وماذا سيبقى بينى وبينه من مقومات الحياة إذ لاحب ، ولا متعة ، ولا تفاهم ولا أولاد ؟!
أحيانا ينتابنى ندم على رفضى الاستمرار مع زوجي الأول وتقبل فكرة أن يتزوج بأخرى على الأقل كانت هناك مشاعر طيبة تربطنى به وأحيانا أخرى أعود وأحمد الله على أنى لم أقبل بهذا الأمر وأنى تمسكت بالطلاق فما كنت لأحتمل مجرد التفكير فى أنه سينام فى أحضان امرأة أخرى ، فكيف كنت سأحتمل الواقع بكل قسوته ؟!

- كل شئ نصيب يا سعاد ، لا تندمى على مافات ولكن فكرى فيما هو آت
- وأنت ماذا تنوين أن تفعلى ..؟
- أنا مشكلتي أكبر بكثير ..إنها تزداد تعقيدا بمرور الوقت ، صدقينى أنا لا أعرف ماذا سأفعل لكن الشئ الوحيد الذى أعرفه وأصرّعليه أنى لم أعد أطيق أن يلمسنى .
- لكن إذا بقيت على امتناعك عنه قد ..
قاطعتها أمينة قائلة :
- يضربنى ..؟
- كما فعل سابقا ..
- ربما .
يسود صمت ليس بطويل كأنما تصغى كل منهما إلى داخلها ،
تقطع أمينة ذلك الصمت بسؤال جاء على استحياء :
- هل من أخبار جديدة عن الأستاذ أحمد ؟
- أخبار مؤسفة والله يا أمينة .
ارتعد قلب أمينة وتغير وجهها فيما أكملت سعاد :
توفيت زوجته متأثرة بإصابتها بنزيف داخلى .
- زفرت أمينة زفرة ثم سألتها :
- وكيف هو ..؟
- هو بخير غير أن جبرت ذراعه ما رأيك أن تذهبى معى لتقديم واجب العزاء.
- لا أعتقد أن حامد سيوافق .
- عزيه بالتليفون .
- هل لديك رقم هاتفه ؟
- ليس معى الآن و لكن يمكننى الحصول عليه من أحد الزملاء .
عادت أمينة إلى بيتها وقد شعرت بشئ من الارتياح بعد حديثها مع سعاد ، عادت يداعبها الأمل فلا يسعها إلا أن تدفعه بعيدا عنها ولسان حالها يقول : دعك منى أيها الأمل ، سيبطش بنا حامد .

١١

صارت أيام سعاد أكثر كآبة خاصة مع تلك الأزمة النفسية التى يمر بها زوجها وهو قابعا طيلة الوقت شارد ،
أى حياة تلك التى تحياها مع زوج لا تكاد تشعرها بوجوده ، إنها حياة الموت أو موت الحياة .
تنظر إلى صابر الذى يجلس فى مكانه لايكاد يحرك ساكنا تحدث نفسها ...
أينا أكثر شقاءا و بؤسا ... أنا أم أنت ؟ أينا أحق بالشفقة ..؟
أحيانا تنتابنى رغبة فى تحطيم كل ما يحيط بى ، الأوانى ، الأثاث وحتى الجدران ، أود لو أطلق صرختى فى وجهك .. كفى ، أريد رجلا يدير ساقيتى المعطلة ويروى أرضى العطشى لقد ذبلت أزهارى وتساقطت أوراقى على أرضك الجافة لتدوسها قدماك فى أنانية قائلة : هل من مزيد ؟
هذا غراس الأمس وقطاف اليوم فماذا سأنتظر من الغد غير هشيم العمر تذروه الرياح ؟
لقد خانتك وردة مع رجل تسلل إلى فراشك أثناء غيابك أما أنا فكنت أتسلل فى كل
ليلة وأنت نائم بجوارى إلى باحة الحلم وأغلق دونى ودونك بابا وآتى بجذوة
من نار أحسها تستعر داخلى لتضئ لى أنا ومن أختاره فى تلك الليلة ليحرث أرضى ويمسحها بحنان ويطوف بين قطافها ، ينهل منى شهدا وأنهل منه ريًا وانتشاء ،
أستيقظ على برودة فراشك وقد خبت جذوتى وتبددت نشوتى ، أجد نفسي عطشى وأرضى جافة وفاكهتى قد استكانت فى ذبول حتى إشعار آخر فى ليلة أخرى ،
سئمت من النشوة الكاذبة وأرهقنى الخيال ،
إلى متى سأظل هكذا ؟
فكً لجامى وتجنب ثورتى ، ألا تخشى أن أوجه إليك طعنة قد تكون قاتلة ؟
لكنك لن تفعل ، أنت أنانى ، جبان ، ستهرول إلى من يساعدك فى إبقائى مقيدة فى حظيرتك الخربة التى لاتليق بمثلى .
إنك تستحق مافعلته بك وردة ، لقد صفعتك على وجهك صفعة تردد صداها في أذنيك لتقول لك .. أنت كاذب ومدع ، وهذا جزاء كذبك عندى ، لدغتك أنثاك وهربت ولم تع الدرس ولم تفكر أن الثانية قد تكون قاتلة ..

آه يا سعاد ما أشقاك إذ لاتملكين حق الصراخ ، فلتبقى صامتة تأكلك نيران الرغبة والغضب أو تأكليها فكلتا الحالتان حارقة وحارة كزفرتك التى تنطلق من داخلك كأنها بركان غضب .

تنتبه من شرودها ، تخطو نحو صابرفي تكاسل كأنما تجر قيدا حديديا ثقيلا فى قدميها تسأله « إن كان يرغب فى تناول العشاء » لتتلقى الجواب المعتاد منه فى الفترة الأخيرة ألا وهو الصمت .

لاشئ يحدث فى هذا البيت سوى الصمت ، لكأنه هو و الجدارن والأثاث وصابر قد تواطأوا جميعهم على قلبها !

تعاود السؤال وتردفه بعبارة تحاول بها زحزحة الثقل القابع فوق صدريهما :

أحضر لك العشاء أنت لم تأكل جيدا فى الغداء ؟

لا يجب و إنما يخطو نحو الفراش بخطوات متباطئة كعجوز أثقله الدهر :

- تعشى أنت ، أنا سأنام .

ينام وتبقى ساهرة ، تجالس وحدتها ، لايواتيها النوم أما الحلم فقد صار عصيا

يمر الليل عليها طويلا بطيئا كليل أمينة التى تغمض عينيها على غير نوم أرقة تخشى أن ينفذ صبر زوجها فى أى لحظة ويعلوها مخترقا دفاعاتها الضعيفة التي لايكاد يراها و لايعمل لها حسابا ، حتى أنه عندما قررت أن تمتنع عنه متذرعة بادعاءات لم تعد تجديها لم يعتبر هذا إرادة منها بقدر ما اعتبره صبرا منه ، و لم يرهق نفسه بمحاولة فهم أسباب عزوفها عنه و التقرب إليها بكلمة حانية بدلا من عبارات التوبيخ و التوعد التى لا يكف عن إطلاقها فى وجهها كلما امتنعت عنه .

في الصباح يذهب الجميع وتبقى وحدها بالبيت تعمل ما اعتادت عمله كل يوم تغسل نفس الأواني والأطباق ، تعيد ترتيب نفس الأشياء ، فى تلك المرة ألقت بصرها على الستار المنسدل على المرآة الكبيرة ، خطت نحوه و ما إن أزاحته عن المرآة حتى بدت لها صورتها ، تتأملها متحسرة :

- أهذه أنا .. أهذا وجهى ..؟

- نعم هذه أنت ، وهذا وجهك .

- لكأنى أرى أمامى وجه امرأة قد فارقتها الحياة ..

- ليس هذا ما ترينه ، إنما هو ماتشعرين به .

- أين نضارة وجهى وصفاءعينىً ؟ لم أعد أمينة الجميلة .

- أنت مازلت أمينة الجميلة لكنك تخبئين هذا الجمال خلف عباءة قاتمة ورثة تحرصين على إرتدائها طوال الوقت .

- لو أمكننى أن أرتدى عباءة تخفينى تماما لفعلت .

- هو ليس هنا الآن هيا إرتدى قميصك الحريرى الزهرى اللون الذى تخبيئنه عنه ، صففى شعرك ، ابتسمى و سترين كم أنت جميلة .

في تلك المرة لم تسدل الستار على المرآة ، ذهبت وأحضرت القميص ثم بدأت فى خلع ملابسها حتى صارت عارية تماما و ما إن همت بارتدائه حتى فاجأها حامد الذى لم تشعر بدخوله من باب الشقة عائدا على غير موعد و ما إن لمحته حتى حاولت بحركة سريعة وتلقائية ستر ماتيسرمن جسدها بما كان في يدها ، مد يده وجذب منها القميص بقوة كاشفاعن أنثاه التى تمنعت عنه كثيرا ، تأججت فيه نيران الرغبة ، همَّ بها ، تراجعت للوراء بضع خطوات ، استدارت محاولة الابتعاد عنه بخطوات سريعة ، أهاجه ظهرها العارى ، اندفع خلفها ، أمسكها بقوة ثم طرحها ظهرا ، حاولت دفعه عنها و سحب جسدها بكل قوتها ، ثبتها بيد واحدة أعجزها عن النهوض ، أنزل بنطاله باليد الثانية ، تستحلفه أن يفلتها ، صار نصف عار كادت أن تنفلت منه فأعاد طرحها بقوة ثم ضغط بكلتا يديه على كتفيها ، ساعده ثقل جسده و ضخامته على شلِّ حركتها ، تتابعت صرخاتها وقد أشاحت بوجهها ناحية المرآة ، خارت قواها وخمدت صرخاتها ، كان قد انتهى منها واستلقى بجوارها مستريحا استراحة من غزا وانتصر .

قامت توارى جسدها أمسكت بطرف القميص الذى كان قد انطرح فوقه ، سحبته من تحته بغضب أحدث به فتقا ، لفت به جسدها وخطت بضع خطوات متثاقلة مبتعدة عنه متجهة نحو باب الغرفة مارة بالمرآة فإذا بها شعثة الشعر خائرة القوى فما كان منها إلا أن أمسكت بزجاجة عطر وقذفت بها وجهها في المرآة ، أحدث الارتطام مايشبه الفوهة ، تناثرت الشظايا فى أرجاء الغرفة واشتعلت المرآة بالشروخ المتناثرة عليها لترى وجهها فى إحداها مشطورا إلى نصفين وقد أخفى الشرخ أنفها

إنتبه من استلقائه على صوت تحطم المرآة ، هبَّ واقفا و صارخا فيها :

- أجننتِ ..؟

لم تلتفت له ولم تهتم لزعقاته الغاضبة ، أحكمت الإمساك بأطراف قميصها على جذعها حتى لايسقط عنه بيد وأمسكت باليد الأخرى قطعة من المرآة المحطمة وقذفته بها بكل قوة ' لكنه تحاشاها بالانخفاض سريعا وقبل أن تكرر فعلتها بقطعة ثانية وقد انتابتها نوبة غضب وبكاء هستيرى اندفع باتجاهها محاولا منعها من قذفه بالمزيد فوطئت إحدى قدميه شظية من الشظايا المتناثرة ، أدمته وزادت من حدة غضبه ، انحنى على قدمه و التقط الشظية منها ثم اندفع ناحيتها وانهال علي وجهها صفعا ، لم تكن تحاول تحاشى صفعاته فى تلك المرة بقدر ماكانت تحاول أن توجه صفعاتها له مما آثار جنونه فظل يضربها بقوة ويدفعها للخلف حتى اصطدم ظهرها بالحائط وسقطت على الأرض خائرة القوى .

خارت صرخاتها وصارت نشيجا خافتا .

تركها و خرج متجها إلى الحمام ، أخذ حماما و ضمد قدمه ثم خرج صافقا الباب خلفه .

استجمعت ماتبقى لديها من قوة وحاولت النهوض ، خرجت من الغرفة متجهة إلى الحمام أغلقت الباب عليها من الداخل ، إنزوت فى ركن منه وراحت تجهش بالبكاء .

عادت حورية وحسناء من المدرسة تبحثان عنها و ما إن سمعتهما حتى كتمت صوت أنينها كى لا تفزع صغيرتيها ،

نادتها حورية :

- ماما ، أين أنت يا ماما ؟

يأتيها صوت أمها ، مبحوحا ومتقطعا :

- إذهبى لغرفتك ، سأخرج بعد قليل .

تفتح الصنبور، يتدفق الماء البارد فوق رأسها وعلى جسدها ، تمعن فى صبه عليها بغزارة كمن تود لو أنه يغسلها منه ويزيل ماعلق بروحها من أدرانه ،

بعد حين تخرج لتجد الفتاتين فى انتظارها تسألان عن أبيهما وطعام الغداء !

تلحظ حسناء ما بوجه أمها فتسألها فى براءة :

- هل اصطدمت بالحائط ثانية ياماما ..؟

تكنس شظايا المرآة المتناثرة فى صمت لم تطاله صرخاتها التى مازالت تتردد على سمعها ، بينما تتراءى أمام عينيها مشاهد متقطعة ومتناثرة لما حدث تبرق فى ذاكراتها و تدمى روحها كتلك الشظايا المتناثرة .

نظرت فى قطعة من المرآة المحطمة ، تأملت وجهها ، بدت آثار أكفه واضحة

عليه :

- أنت الآن أجمل ... أجمل من أى مرة رأيتك فيها !

- أتهزئين بى ؟

- لا أهزأ بك وإنما أراك أجمل .

- اغتصبنى وضربنى ، لقد أهاننى إهانة كبيرة .

- ماحدث كان إهانة له وليس لك ، مزيد من القوة تحتاجينه الآن لزحزحة تلك الصخرة التى بداخلك لتخرجى من قبوك المعتم .

- قبوى أنا ..!

- نعم أنت .. يجب أن نتوحد ثانية .

- ألم أحطمك منذ قليل ...؟

- حطمت المرآة فقط ، أما أنا فلا يمكنك تحطيمى ، يمكنك أن تسمعينى وترينى حتى بدون مرآة وأنا كذلك يمكننى أن أسمعك وأراك .

- إذن كنتِ معنا تشاهدين وتسمعين ..؟

- دائما أنا معك أنا توأمك الذى يحيا بداخلك .
- أخبرتنى أمى أنه كان لى أخٌ توأم وُلد ميتا ، كمْ كنت أتمنى أن تسكن روحى فى جسده بدلا من جسدى .
- كنتِ الأقوى فى رحم أمك ، وكان من الممكن أن تظلى بنفس القوة ، لكن بمضى الوقت كنت أراك تضعفين شيئا فشيئا ... كم حاولت أن أتوحد معك وأحرضك على صمتك الذى ظل يؤلمنى حتى كاد يمحونى من داخلك حتى أطلقت صرختك فى وجه حامد و قلت «لا» لشئ لاتريدينه ، صرختك تلك أنجبت الشظية الصغيرة التى أدمت قدمه الكبير .
- لكنه هزمنى وانتهك جسدى .
- انتهك جسدك فلا تدعيه ينتهك روحك .
- كيف ..؟
- افعلى ماتريدين فعله .
- أريد أن أترك هذا البيت ..
- اتركيه .
- أريد أن أترك حامد إلى الأبد .
- اتركيه إلى الأبد .
- أريد أن ... أخبر أحمد بحبى له .
- أخبريه بحبك له .
- أريد أشياء كثيرة ..ولكن من أين لى بالقوة التى تمكننى من إمضاء إرادتى ..؟
- حاولى .
- أتعرفين ماذا ستكون النتيجة .. ؟
- مزيدا من المعاناة .
- أهذا ماتريدينه لى ..؟
- إن كانت تلك إرادتى فأين إرادتك أنت ..؟
- أنت لست حقيقة ، أنت أخبرتنى هذا من قبل .
- نحن نصدق مانريد تصديقه ..
- أنا فقط أحدث نفسى فى قطعة مرآة ,
- إذن فأنا نفسك .
- لا .. أنت لا شيء ، أنت مجرد وهم
- وأنت ؟
- أنا ماذا ؟
- لا شيء أيضا مجرد وهم ،

ـ أنت مجرد صورة حمقاء
ـ أنت مجرد صورة حمقاء
ـ لا تكررى ما أقول ،
ـ لا تكررى ما أقول
ـ أنا سأحطمك
ـ أنا سأحطمك

أخذت تدق بغضب قطعة المرآة حتى حولتها إلى ذرات صغيرة ثم أسندت ظهرها للحائط وانفجرت بالبكاء .

بعد حين كومت حطام المرآة المتناثر بفرشاة صغيرة وأزاحتها على جاروف بلاستيكي وذهبت للإلقاء به فى السلة ، فإذا بصورة وجهها وقد تناثرت أمامها على حطام المرآة فى تحد ، أهالت الحطام داخل السلة و أغلقتها وخرجت مسرعة كأنما تهرب من شبح فإذا

بحورية أمامها تسألها بدهشة :
ـ ما بك يا ماما ؟

تصرخ فى غضب أفزع ابنتها :
ـ لا شأن لك ، ادخلى إلى غرفتك ، نادى أختك سنغادر الآن .

جمعت بعض ملابسها فى حقيبة صغيرة وكذا ذهبت إلى غرفة طفلتيها وجمعت بعض ملابسهما وكتبهما وهما تتساءلان :

إلى أين سنذهب ياماما ؟
ـ إلى بيت جدكما
ـ و بابا ...؟
ـ لن يأتى معنا .
ـ سيلحق بنا ؟

أمرتهما بالاسراع فيما قفزت حسناء فرحا وهرعت تساعد أمها فى جمع أغراضها ،

حملت أمينة الحقيبة بيد وأمسكت بيد صغيرتها حسناء باليد الأخرى ، فتحت باب الشقة على عجل ، لم تنتظر حتى تلقى نظرة أخيرة عليها ، أغلقت الباب خلفها ، تعمدت أن تسلك طريق لم يعتد حامد أن يسلكه حتى تتحاشى احتمالية أن يتصادف ذهابها بعودته .

يعود فلا يجدها بالبيت لأول مرة فى حياتهما معا ، خرج فى إثرها مسرعا عساه يلحق بها قبل أن تصل إلى بيت أبيها ولإعادتها إلى بيته لكنه لم يجدها ، كانت قد ذهبت ، وصلت إلى بيت أبيها ، دقت الجرس وحين فُتح الباب فوجئت به جالسا مع أبيها وأمها ،

لقد سبقها حين سلك طريقا مباشرا بخطوات أسرع وأوسع .

أما هى فكانت تمضى مع ابنتيها بخطوات كأقدامهن صغيرة ، ألقت بحقيبتها ودخلت مباشرة إلى غرفة أبويها دون أن تنطق بكلمة واحدة بينما ينظر ثلاثتهما في دهشة قطعتها أمها قائلة :

- سأذهب لأرى مابها ،

وما إن رأت الأم آثار الضرب على وجه وجسد ابنتها حتى ضربت بكفها على صدرها وهى تشهق :

يامصيبتى يابنتى .. ؟

إنهالت دموع أمينة وارتمت على صدر أمها ، تقول بصوت يخالطه البكاء:

- ضربنى ياأمى .

ضمت الأم ابنتها إليها محاولة تهدئتها و الاستفسار منها عما حدث ، وقد غضبت

لما رأته من آثار الضرب وخرجت لتعاتب زوج ابنتها على فعلته ..

- أهكذا ياحامد تعامل ابنة عمك وأم بناتك ؟ أتضربها حتى يتورم وجهها ؟

يتساءل الأب :

- ماذا حدث ؟ مابها أمينة ؟

- اسأل ابن اخيك .

- ماذا حدث ياحامد يا ابنى ؟

- لاشىء ياعمى ... فقط أستأذن زوجة عمى فى كوب شاى إذا سمحت لى بالحديث معك حديث الرجال

نظر الأب إلى زوجته نظرة واحدة خرجت على إثرها ، ليبدأ حامد فى سرد ماحدث لعمه :

- أمينة ياعمى تغيرت أحوالها منذ فترة وبالتحديد منذ عودتها للعمل وزياراتها المتكررة لسعاد خليل صديقتها .. ألا تعرفها ؟

- نعم أعرفها ، ما شأن أمينة بها ؟

- صديقتها المقربة وقد أمرتها أن تقطع علاقتها بها لكنها أصرت ليس فقط على الاتصال بها بل وزيارتها أيضا .

- يجب عليها أن تطيعك .. هى لاشك مخطئة ..

- تركتها ياعمى وقلت فى نفسى .. الطيب أحسن ،

- فعلت خيرا يا إبنى .

- لم تحترم كلامى وزادت فى عصيانها وإهمالها المتعمد لى ولبيتها وحتى لمظهرها ووصل الأمر بها إلى أن تترك غرفة نومى والذهاب للنوم فى غرفة البنات .

- هذا خطأ كبير وحرام أيضا .
- قلت أصبر عليها ربما تعود إلى عقلها ،
- أصيل ياحامد يا إبني
- طلبت منها ترك العمل حتى تستريح ويكون لديها الوقت الكافى للاهتمام ببيتها وبنفسها .
- خيرا فعلت ..
- وهذا الخير ينقلب على بشر ..!
- كيف ...؟
- زادت في إهمالها وعصيانها وهجرها للفراش حتى أنها إمتنعت عنى تماما وكلما ذكرتها بأن هذا حقى الشرعي تعللت بأسباب أعرف يقينا أنها مجرد حجج واهية تتهرب بها منى مرة وإثنتين وثلاثا ..
- لا لا ، لايرضينى هذا أبدا .
- الأهم من ذلك ياعمى أنها بدأت ترفع صوتها عليَّ وتتبجح معى فى الحديث ،
- أمينة !
ليس هذا فقط ..
- ماذا ثانية ..؟
- حطمت مرآة التسريحة وقذفتني بقطعة منها و لولا ستر الله لكانت قد شقت وجهى فما كان منى إلا أن صفعتها فى لحظة غضب والله ياعمى .
من حقك تضربها و تكسر رقبتها أيضا ، كيف يحدث هذا من أمينة العاقلة المهذبة ..؟!
- اسألها إن كان ماقلته هو ما حدث أم لا .
- أنا لا أكذبك يا بنى ولكنى مندهش مما تقول .
- وبرغم كل هذا عندما تركت البيت سبقتها إليك لأسترضيها وأعود بها إلى بيتها معززة مكرمة .
- ونعم الرجل ياحامد يا ابنى ، انتظرنى دقائق فقط .
خرج الأب وهو يستشيط غضبا من ابنته التى ما إن دخل عليها حتى همَّ بها ليضربها لولا أن حالت الأم بينه وبينها قائلة :
- إهدأ يا حاج ، يكفى ما بها لقد تورم وجهها وذبلت عيناها من البكاء .
- اتركينى ياحاجة أؤدبها وأعلمها كيف تحترم زوجها وتطيعه
تحاول أمينة كبح دموعها قائلة :
- أنت استمعت له ولم تستمع لى .
- ماسمعته يجعلنى أقطع رقبتك ..

- لماذا ياأبى ..؟ ماذا قال لك ..؟
- قال إنك عصيت أمره عندما منعك من زيارة سعاد موافى بنت ال .....
تقاطعه الأم :
- حرام ياحاج عندنا « ولايا »
تعترض أمينة :
- سعاد إنسانة طيبة وليست كما تظنون .
- إذن فقد حدث وزوجك لم يفتر عليك وبالطبع هجرته فى الفراش ولم تعطيه حقه الشرعى .
- لقد ضربني حتى تورم وجهى !
- ضربك لأنك ناقصة أدب وكان لابد أن يؤدبك .. وإن لم تطيعيه وتخرجى إليه الآن وتعتذرى له أنا الذى سأؤدبك وأعلمك كيف تطيعين زوجك .
- إهدأ ياحاج .. إنها أمينة العاقلة ، رفقا بها .. اتركها لى وسوف أتحدث معها .
خرج الأب لتتوسل الأم إلى ابنتها أن « تخزى الشيطان » و أن تخرج إلى زوجها وتبادره الاعتذار تجنبا لغضب أبيها .
تبكى أمينة :
- أرجوكِ ياأمى طلقونى منه ، لاأريده .
تنهرها الأم :
- إياك أن تقولى مثل هذا الكلام أمام أبيك ، والله إنها عين حاسد قد أصابتكما ، اعقلى يا ابنتى ، حامد ابن عمك وأبو بناتك وطول عمره بيحبك ،
- لقد أخذنى بالغصب يا أمى ..
- ولماذا لايكون بالرضا يا ابنتى ؟ رضا الله من رضا الزوج ..
- ماعدت أطيق معاشرته ، ما عدت أطيقه أن يلمسنى ..
- أنت فقط غاضبة لأنه ضربك ، حامد مهما كان عصبيا لكنه طيب .
- أنا لا أحبه يا أمى و لم أحبه فى أى يوم .
- إياك أن يسمعك أبوك تقولين مثل هذا الكلام الفارغ ...
وبينما كان الحديث يدور بينهما إذ بطُرقات على الباب ، إنه حامد يستأذن فى الدخول لمصالحة زوجته ومعه أبوها ، يدخلان ، يقترب منها مقبلا رأسها ، مبديا أسفه على مرأى ومسمع من أبويها اللذين شكرا له حسن صنيعه وأثنيا على أدبه الجم .
أما أمينة التى أشاحت بوجهها بعيدا عنه فكان جزاؤها أن وبخها أبوها وأنذرها بما قد يسوؤها منه إن لم تعتذر و تستجب لرغبة زوجها فى العودة معه .

لم تستطع أمينة أن تذكر أمام أبيها ماذكرته أمام أمها من رغبتها في الطلاق خوفا من ردة فعله التى حتما ستكون غاشمة .

لم يكن لديها خيار سوى أن تعود أدارجها مقهورة ومرغمة ، تجر خطاها يثقل كاهلها حمل ثقيل ، حمل تراكم عبر تاريخ طويل أطول من سنوات عمرها بمئات وربما آلاف السنين وكأنما قد أحنت تلك السنوات قامتها حتى كادت تبدو مقاربة من قامة ابنتها ذات العشرة أعوام بينما كان هو يتقدمها ببضع خطوات ، قدماه كبيرتان منبسطتان بقوة وثبات على الأرض ، نفس الأرض التى وطأها من قبل أبوه وجده ، يمضى منتصب الرأس فارع الطول يلقى السلام على من يمر بهم بصوت جهورى

وبينما هم ماضون فى طريقهم إذ داعبت روحها نسمة حملت إليها عبيرا ساحرا وسمعت صوتا خفق له قلبها يرد التحية التى ألقاها زوجها فرفعت رأسها قليلا ، إنه أحمد فى سيارة يقودها زميل لها على مهل يستوجبه الطريق الترابى الذى يقودها عليه ، تسارعت دقات قلبها ، حاولت إخفاء وجهها بوشاحها كى لايلحظ مابه من كدمات مع التفاتة لم تكن تطاوعها تماما للناحية الأخرى ، عبرت السيارة بعد أن أثارت خلفها بعض الغبار الخفيف المعبق بعبير ظل يعانق روحها و يلثم وجهها فيمسح عنه آثار أكف غليظة .

تتساءل فى نفسها :

أتراه لاحظ ما بوجهى من كدمات .. ؟

أتراه لمح عينىً الدامعتين .. ؟

بل أتراه تعرف علىً..؟ تخشى أن تؤلمها الاجابة .

كانت تود لو تسلك نفس الطريق الذى سلكه ، تتبع عبيره لكن حامد انعطف

فكان لزاما عليها أن تنعطف ، حيث يقبع بيته فاغرا فاه متأهبا لابتلاع ما تبقى

من عمرها .

تمضى الأيام لأنها يجب أن تمضى ، تدور الشمس فى فلكها والأرض حول نفسها مابين شروق وغروب كلاهما مقيت.

تجر خطاها مثقلة بقيود تحسها ولا تراها ، تنظف ، تطهو ، ترتب ، تتألم فى صمت ، تأوى بالليل إلى فراشها لاحزن ولا فرح ، لاحياة ولا موت ، لم يعد لديها رغبة فى الخروج ولا فى الحديث مع أى إنسان حتى مع صديقتها المقربة لم تكن تتفوه غير كلمات قليلة ومقتضبة فقط إذا اقتضت الضرورة .

حامد يبدى ارتياحه لهدوء زوجته وكيف صارت مطيعة وإن كان يضايقه عدم اهتمامها بنفسها وتلك الملابس المهلهلة التى تُصر على ارتدائها بالليل والنهار وتلك العصابة التى صارت تحكم شدها على رأسها طيلة اليوم والتى كان يطيح بها كلما رغب فى مواقعتها

لم تعد تعترض ولم تعد تتذرع بأى من الحجج التى طالما كانت تتذرع بها من قبل ، بل تظل صامتة حتى عندما يكشف عن ساقيها إلى مجمع فخذيها فلا تحرك ساكنا غير أنها كانت تنظر إلى أعلى فى سقف الغرفة التى كانت دوما تشعر أنها قاب قوسين أو أدنى منها حتى خيل لها أنها تكاد تنطبق فوقها وتزهق روحها إلى أن ينتهى منطرحا بجوارها فتمد يدها فى أول إشارة منها تنم على أنها ماتزال على قيد الحياة فترخى ملابسها وتسحب عليها الغطاء ،

١٢

يعود حامد فى أحد الأيام يحمل مرآة كبيرة بدلا من تلك التى حطمتها ، يناديها مخبرا إياها أنه قد اشترى مرآة جديدة ويدعوها (متهكما) للنظر إلى هيئتها فيها

وكان أول مافعلته فيما بعد أن عمدت إلى الستار القديم وغطتها به ليتعجب هو من أمرها وإصرارها الغريب على تغطية كل المرايا التى بالبيت أو تحطيمها ،

فيسألها: لماذا تكرهين المرايا هكذا..؟

يسحب الستار من علي المرآة ويقبض على ذراعها جاذبا إياها ليجعلها تقف تماما فى مواجهة المرآة قائلا :

ـ انظرى إليكِ ... انظرى كم صارت هيئتك رثة .. أهذا ماتتحاشين النظر إليه ؟

دارت بها الأرض وترنحت وكادت أن تهوى على الأرض لولا أنه أمسك بها ، خطا بها خطوات حتي أجلسها على أحد المقاعد وسألها عما بها فأجابته بأنها تشعر بدوار ، يضحك معلقا بأنها صدمت فقط من رؤيتها لنفسها أسندت رأسها بيدها وأمالتها قليلا للخلف ، شعر بجدية ماتدعيه وذهب يستدعى طبيبا ، فحصها الطبيب وأخبره أنها بخير وأن هذا الدوار إنما هو عرض طبيعى من أعراض الحمل ، ثم هنأهما وخرج يتبعه حامد الذى بدت عليه علامات الفرح بينما اغتم وجهها كثيرا لهذا الخبر الذى لم تكن تتوقعه خصوصا بعد ولادتها الأخيرة « القيصرية » وما حدث أثناءها من مضاعفات أخبرها الطبيب بعدها أن نسبة حدوث الحمل فى المستقبل قد تكون معدومة .

لكنه حدث بعد خمس سنوات وعدة متابعات مع بعض الأطباء بإلحاج من حامد الذى كان يرغب بشدة فى إنجاب ولد ذكر .

يدخل اليها ليهنأها ويطلب منها أن تستريح ولا تقوم بأى مجهود ويسرع إلى الهاتف ليزف الخبر إلى عمه و زوجته بالخبر السعيد .

حمل جديد يا أمينة ... ؟

مخلوق تخلق في رحمك قذفه حامد فى أحشائك ذات ليلة تخليت له فيها عن جسدك مرغمة لتنوئي بحمل فوق أحمالك القديمة و تزداد قيودك قيدا جديدا ، وتغوص أقدامك أكثر فى قهرك الموحل ،

حمل جديد قُذف فى رحمى كرها لأحمله كرها وأضعه كرها ، وليد تخلق من صمتى و قهر إرادتى قبل أن يتخلق من دمي

صارت أكثر صمتا وحزنا عن ذى قبل .. ازداد شحوبها و نحولها برغم أن حامد بدأ يتحامل على نفسه قدر الإمكان فأصبح يساعدها « على غير عادته » فى بعض أعمال البيت التى قد تثقل عليها حرصا منه على استمرار الحمل الذى لم تكن هى حريصة عليه ولا على نفسها .

تعرف سعاد بخبر حملها و تبارك لها وتستأذنها فى زيارتها حيث إنها افتقدتها كثيرا فى الشهور الأخيرة التى لم تتواصلا فيها إلا عبر الهاتف ، تعرض عليها أمينة زيارتها فتجيبها سعاد متحفظة بأنها تخشى أن تكون زيارتها سببا فى إزعاج زوجها ، فتؤكد لها أمينة أن هذا لن يحدث و تؤكد هذا بدعوتها للزيارة فى أى وقت .

تستوضح سعاد :

- حتى لو كان حامد موجودا بالبيت ؟

فتؤكد لها بنبرة واثقة :

- حتى لو كان حامد بالبيت ، لقد تغيرت معاملته لى وأصبح عطوفا علىّ ، حريصا على راحتى .

لم يمنع هذا سعاد من تخير وقت مناسب للزيارة .

قابلتها أمينة بحفاوة بالغة بادلتها إياها سعاد بابتسامة كبيرة بدت على وجهها ثم ما لبثت تلك الابتسامة أن تحولت إلى نظرة إشفاق :

- يااااه يا أمينة .. ما كل هذا الذبول ؟

- أى ذبول ..؟

- الذبول الذى يبدو على وجهك

- لايعنينى ذبول وجهى .

- فما الذى يعينك إذن ..؟

- ذبول روحى ، أشعر أنى قريبة من الموت .

وهنا اقتربت سعاد منها وهى تربت على كتفها :

- إن شاء الله ستضعين حملك وستكونين بخير ...

- الأحمال كثيرة وثقيلة .. أثقل من أن أتحملها .

- ترفقى بنفسك ، أعرف أنك لاتحبين حامد ولست سعيدة معه وأنا مثلك لاأحب صابر ولست سعيدة معه ولكن الحياة ليست محصورة فيهما فهناك أشياء أخرى تستحق أن نعيش من أجلها .

- آه يا سعاد لو تعلمين مابى .

- تكلمى ياحبيبتى ...

أمينة وقد ألقت برأسها على صدر صديقتها وأخذت فى البكاء

- ما بك يا أمينة .. أهناك مايسوؤك إلى هذا الحد ؟

تمسح دموعها براحة يدها و تتنهد تنهيدة حارة :

لم أشعر يوما بوجودى ، أثناء طفولتى كان أبى فظا كحامد ، لم تكن أمى تجرؤ على معارضته حتى عندما أسلمنى بيده ليد حامد ، كنت قد أسررت لها بعدم رغبتى فيه فالتزمت الصمت وأمرتنى بالتزامه ، متحاشية مخالفة أبى و إغضابه صمتُ فكان الصمت دليل الرضا !

لم أكن أكره حامد حينها ولم أكن أحبه ، كان شعورى نحوه كشعورى نحو أبى مزيجا من الهيبة والخوف ، وقتها تمنيت أن يكون لى بيت جديد وحياة مستقلة ، أخبرتنى أمى بأن حامد يحبنى ، صدقتها أو بالأدق كنت أريد أن أصدقها كما صدقت أن حياتى معه ستكون مختلفة ..

كنت أسترق مشاهدة الأفلام الرومانسية التى كان أبى يعنفنى بشدة عندما يرانى أشاهدها ويغلق التلفاز موبخا أمى و متهما إياها بالتسيب فى تربيتنا و .....

فأخلو إلى نفسي و أغمض عينىَ وأهيم فى أحلامى التى لا يسع أبى و لا أمى أن يراقبانى فيها ، أتخيل نفسى الفتاة التى يحبها البطل ويهمس لها بكلمات الحب والشوق و الغزل ، حتى كانت ليلتى الأولى مع حامد ، ليلة العمر كما يقولون ...

كم رسمت تلك الليلة فى خيالي فكنت أراها من خلف غلالة بيضاء وأضواء ساطعة حجبت عنى رؤية تلك الظلال السوداء التى توارت خلفها أحلامى لأعيش بعدها فى كابوس أحسه أطول من أيامى ،

حملت بحورية ، كيان تشكل من دمنا نحن الاثنين فكانت ملامحها خليطا من ملامحنا أنا وهو ، جاءت لتؤكد لى بشكل عملى أنه قد تم الدمج الذى يستحيل بعده الانفصال ، تأتى بعدها حسناء على نفس الهيئة لأوقن أنه قد أحيط بى ، هو زوجى وأبو بناتى ، وابن عمى الذى يعتبره أبى الولد الذى لم ينجبه ، فصار بمثابة الامتداد الطبيعى له فى الحياة ، خطبنى له و أنا فى السادسة عشر و عقب انتهائى من امتحانات الثانوية العامة أصرّ أبى على إتمام الزواج أولا ثم ترك لحامد حرية اتخاذ القرار بشأن مواصلة دراستى بعد الزواج ، وافق حامد بعد استعطاف وتوسل على إلتحاقى بالجامعة بعد أن حدد لى الكلية التى سأنتسب لها ،

ماكنت أحب مجال دراستى لكن هذا ما أراده حامد ، ماكنت أحب أن أتزوج حامد لكن هذا ما أراده أبى .. أردت أن أستمر فى عملى لكن حامد أراد غير هذا .

أردت أن أطلْق منه وكان يجب أن أعلم أنه لا إرادة لى ، فقد وئدت إرادتى قبل أن تولد ،

- هونى عليك يا أمينة فحالك كحال كثيرات غيرك إن لم يكن أهون .. الحياة فيها ماهو أشد قسوة وضراوة ، ربما تكونين عانيت كثيرا .. وربما تكون الصورة قاتمة لكن لا يجب أن تهملى صحتك وحياتك بهذا الشكل تمسكى بالأمل دائما .

- أي أمل قد يكون لي ؟
- الأمل وإن خبا نوره فإنه موجود مادامت الحياة ، صدقيني ، أنا ألمحه كل صباح عندما أصعد إلى السطح لأروي ماغرسته بيدي فأجد زهرة جديدة قد تفتحت فأقول في نفسي : لم تكن هنا زهرة بالأمس ..

أتحسسها بيدي فأقرأ في نضارة أوراقها وروعة ألوانها رسالة جديدة بعثت بها إليَّ الحياة لتبعث في نفسي أملا جديدا فأحتمل اليوم أملا في الغد .

تنتهي سعاد من حديثها لتجد أمينة وقد ألقت ببصرها صوب الشرفة وكأنها تتأمل شيئا ما ، تسألها :

إلام تنظرين ..؟ فتجيب على سؤالها بسؤال :
- ماأخبار عصفوريك ..؟ ألم يبرحا قفصهما بعد ؟
- مالذي ذكرك بهما الآن ؟
- لا أدري مجرد سؤال خطر على بالي وأنا أنظر من الشرفة .
- كما هما في القفص .
- كأني أراهما أمامي الآن وهما يرنوان إلى السماء يودان أن يطيران ..
- سبق وقد فتحت لهما باب القفص لكنهما لم يحاولا الخروج .
- لكن باب القفص لم يفتح لي في أي يوم .
- حاولي ..
- حاولت مرة فكانت محاولتي كنقرات عصفور صغير على جزع شجرة لم يشعر به أحد .
- حاولي ثانية وثالثة حتى تستحيل نقراتك طرقات قوية ،
- إذا أمكنني مواجهة حامد وأبي والناس ، فهل سيمكنني مواجهة عيون بنتيَّ وما سوف يلحق بهما ؟

و إذا أمكنني احتواؤهما فكيف سأواجه بهما الحياة وحدي...؟

صدقيني لا أمل لي ..
- مازالت لديك حياتك التي يجب أن تحرصي عليها إن لم يكن لأجلك فليكن لأجل بنتيك اللتين تحتاجان لوجودك معهما .

أمينة وقد تعلق بصرها بصورة لطفلتيهما معلقة على الحائط :
- لعل هذا ما يجعلني أنهض من فراشي في الصباح ...

تأخذ نفسا عميقا وتنظر إلى صديقتها :

ماذا عنك أنت طمأنيني عليك
- أنا كما أنا لاجديد غير أني سأواصل النقر على رأس صابر حتى أقض مضجعه ويطلق صراحي وإن لم يستجب ويطلقني سأطلق نفسي منه .
- كيف وهل هذا ممكن ..؟

- ممكن مع قانون الخلع .
- سمعت أن هذا القانون الجديد ينصف المرأة ويرفع الظلم عنها
- هو لم يرفع الظلم عنها بقدر مايوقع الظلم عليها لكن ليس أمامى طريق آخر يمكننى السير فيه لنيل حريتى .
- كيف لم يرفع الظلم عن المرأة .. أليس هذا القانون هو الذى يتيح للمرأة إمكانية تطليق نفسها إذا شاءت حتى بدون ذكر أسباب رغبتها فى الطلاق ؟
- نعم هو ماذكرت ، ولكنه كما قلت لك لم يرفع الظلم عن المرأة بقدر ما أوقع الظلم عليها .
- كيف هذا ..؟
- لأن االأمر يستغرق شهورا طويلة وقضية ومحاميا قد لاتجد المرأة ماتدفعه إليه خصوصا بعد أن تجد نفسها مضطرة للتنازل عن كافة حقوقها الشرعية له ، وهذا ماشجع بعض الرجال على استغلال هذا القانون لصالحهم ، عندما يريد الرجل تطليق زوجته بدون أن يعطيها أيا من حقوقها فإنه يدفعها بطول إجراءات التقاضى فى قضايا الطلاق العادية إلى التنازل عن كل حقوقها وهنا تجد المرأة نفسها مضطرة للقبول حتى تتخلص من حياة لا ترغبها .
- كنت أظن أن الخلع هذا أمر سهل ولا يستغرق وقتا ولا مالا ولكنه على كل حال أهون من قضايا الطلاق العادية التى تستغرق سنوات فى المحاكم والتى قد لاتحصل فيها المرأة فى نهاية المطاف على شئ .
- أتساءل لماذا لايمر الرجل بتلك الإجراءات عندما يقرر هدم البيت بكلمة يطلقها فى وجه زوجته ؟
- ماذا تقصدين ..؟
- أقصد أن المرأة إذا أرادت الحصول على الطلاق فإنها تضطر إلى اللجوء للقضاء ، والرجل إذا أراد أن يطلق فما عليه سوى أن يقول « أنتِ طالق »
وأنه ليس مضطرا مثلها للجوء للقضاء والسير فى إجراءات طويلة و معقدة قد تضطرها فى بعض الأحيان لاستخدام طرق ملتوية واللجوء الى ادعاءات كاذبة كما يحدث كثيرا فى الواقع .
- أتطالبين أن يلزم الرجل باللجوء إلى المحكمة عندما يريد تطليق زوجته كما تفعل النساء ..؟
- ولم لا ... ؟ أليس هناك من يطلق لفظة الطلاق على زوجته لمجرد أنها أغضبته أو خرجت بدون إذنه لذا عندما يكون مضطرا للوقوف أمام القاضى وإبداء الأسباب التى تدعوه لتطليق زوجته سيقلل هذا من الاستهانة بلفظة الطلاق لأتفه الأسباب و بهذا يقلل من نسبة وقوعه .

- أتريدين أن يسلب هذا الحق (الطلاق) من الرجل ..؟
- أو أن يعطى نفس الحق للمرأة ..
- كيف ..؟
- بأن يكون لها الحق فى أن تقول له أنا طالق منك والذهاب إلي المأذون وتحرير وثيقة طلاق يُعلم بها الزوج وتتنازل بمقتضاها عن كافة حقوقها كما ينص قانون الخلع وتكون بذلك قد تجنبت إهدار وقتها ومالها واللجوء للقضاء الذى لا يسعفها .
- لا يا سعاد هدم البيوت لا يجب أن يكون بهذه السهولة
- أنا أقصد من كلامي تطبيق مبدأ المساواة ، سواء فى السهولة أو فى الصعوبة أليست المساواة فى الظلم عدلا ؟
الأمر بالنسبة لي أشبه بشخصين يعيشان فى شقة واحدة أحدهما يملك مفتاحا بينما الثانى لا يملك نسخة من هذا المفتاح ويكون بذلك غير قادر على الدخول أو الخروج إلا إذا رغب الأول .
- إن ما تطلبينه موجود بالفعل فى الاسلام وليس هناك مانع شرعى فى أن تكون العصمة فى يد المرأة .
- المانع ليس في الشرع و لكن فى العقول التى تطبق الشرع ، ألا تلاحظين أن من نقل الشرع و فسره رجل ، وأن من سن القوانين وطبقها رجل ؟!
- إذن فليس أمامنا حل سوى الرضوخ لهذا الرجل ،
- أحيانا أتمنى أن أهرب من أى رجل ، من صابر ومن أبى ومن أخى ..
- إلى أين لأهرب معك ؟
- إلى أى مكان لا يتبعنى فيه الخوف ، مكان أجد فيه نفسى وأشعر فيه أنى كائن حر يمكننى أن أعيش فيه كما أريد دون خوف أو قيد .
- الخوف لا يتبعنا يا سعاد، إنه يعيش فى داخلنا ، وُلد معنا وكبر معنا والدليل على هذا أنك لن تذهبى إلى أى مكان ولن أذهب أنا أيضا ، وسنبقى مثل عصفوريك ..
شعرت أمينة بشئ من الارتياح بعد هذا الحديث الطويل مع سعاد بالرغم من أنها لم تفض فيه بكل ما يعتمل فى صدرها .
كانت تود لو تبوح بسرها وتعلن عن حبها ، تقول لنفسها معاتبة :
- لماذا لم أخبرها بما أشعر به تجاه أحمد ؟ كانت ستتفهم مشاعرى ، ولم تكن لتسيء الظن بى ولا أظنها ستبوح بسرى أبدا ،
- ولكن ماالفائدة .. ماذا كنت ستجنين من إخبارها ..؟
- لا شيء ، ليتنى فقط سألتها عن أخباره

- كانت ستلاحظ .
- إنه مجرد سؤال عادى عن زميل لنا ..
- لم يعد زميلا ، انقطعت علاقتك بالعمل معه من عدة شهور .
- كانت وعدتنى فيما سبق أنها ستأتى لى برقم هاتفه ولم أسألها عنه ..
- لقد مرً وقت طويل على هذا .. لم يكن من اللائق سؤالك عنه الآن ، ولو كنت سألتها وأعطتك رقم هاتفه ماذا كنت ستفعلين ..؟ هل يجدر بكِ الاتصال به ..؟ وماذا ستقولين له بعد مرور كل هذا الوقت ؟
- أتراه يهتم لأمرى أم أن خيالى صور لى ؟
- ربما لا يكاد يتذكرك ، حتى ولو كان يبادلك نفس الشعور كما تتمنين .. ماذا بعد ؟
- سيكون لديَ الأمل ..
أى أمل أيتها البائسة ؟
تواصل أمينة شرودها متسائلة :
ماذا لو كان ماتمنته سعاد أن يحدث قد حدث بالفعل وأنه يوجد قانون يمكّننى من النهوض حالا والذهاب إلى المأذون وتحرير وثيقة طلاقى من حامد دون موافقته ... هل كنت سأذهب فعلا وأوقع على تلك الوثيقة وأحرر رقبتى من قيد حامد الغليظ ..؟
- هل سأكون قادرة على فعل ذلك ؟ أم أن هناك قيودا أخرى أكثر غلظة ، قيودا تعجز كل الوثائق عن تحريرى منها ؟
تنتبه من شرودها على صوت اصطفاق الباب ، إنه حامد يعلن عن عودته ملقيا عليها السلام . متسائلا بعد أن لاحظ وجود كوبين فارغين أمامها عمن كان يجالسها فتخبره أنها سعاد ، فيمضى ولا يعلق

١٣

تذهب أمينة لمتابعة حملها مع أحد الأطباء برفقة حامد .. حيث يقوم الطبيب بعمل أشعة تلفزيونية على الرحم للتأكد من أن الحمل يسير بشكل طبيعي .
ترنو إلى شاشة الجهاز لترى جنينها كظل أسود لكنها تستطيع أن تميز رأسه و جذعه و أطرافه ، تطلب من الطبيب أن يسمعها دقات قلبه وما إن تسمعها حتى تشعر بدغدغة فى قلبها، تسأل الطبيب إن كان بنتا أم ولدا ...؟
فيجيبها متسائلا ماذا تريدين ؟
فيرد حامد مسرعا :
- إن شاء الله حسن على اسم والدى .
تنكسر نظرتها ولا تعقب ، ليقول لهما الطبيب : فى المرة القادمة سنعرف ، المهم أن تهتمى بطعامك و تنتظمى فى تناول دوائك الذى سأقره لك الآن .
يعقب حامد :
قل لها يادكتور، إنها لا تأكل كما ينبغى لفرد واحد فما بالك أنها تأكل لها ولولدى ، أريده أن يولد بصحة جيدة .
كان الطبيب قد انتهى من كتابة الروشتة التى تناولها منه حامد ودسها فى جيبه ثم مد يده و أمسك بيدها و هى تهبط من على سرير الكشف الشاذلونج وقفت فانحنى مقربا الحذاء لقدميها حتى تتمكن من انتعاله بسهولة ، خرجا من غرفة الكشف وهو يحيط كتفيها بذراعه فى حنو ،
وأثناء عبورهما غرفة الاستقبال حيث تجلس بعض الأخريات ينتظرن دورهن فى الدخول إلى غرفة الكشف همست إحداهن فى أذن جارتها :
- أرأيت ...؟ أين زوجى ليرى ويتعلم كيف يكون الأزواج مع زوجاتهن ؟

* * *

تعود إلى منزلها تحمل فى رحمها قلبا ينبض وفى قلبها جنينا ينمو لا تدرى كيف جاء ولا كيف نما لكنها تشعر به يكبر يوما بعد يوم حتى لكأنها تخشى أن يفتضح أمرها به .
فهاهو قلبها الذى عاش يشكو الظمأ يرتجى رشفة من نهر الحب فإذا بالنهر قد أتى شلالا جارفا كاد أن يقتلعها من جذورها الضاربة بقوة فى أرض حامد وقد أثقل كاهلها حمل جديد تنوء به .
تنظر تارة إليه وهو منهمك فى التهام طعامه و تارة إلى حورية وحسناء ، تتأمل ملامحهما :

ـ حسناء لها نفس أنف أبيها ونفس عينىّ ، حورية تكتب بشمالها مثل أبيها هى لاتشبهنى تماما وإن كان لها نفس استدارة وجهى ولون بشرتى ،

تنتقل عيناها بين أفراد أسرتها و هم يتناولون طعامهم ثم تتوقف لحظة كأنما تلتقط لهم صورة عائلية ، حامد فى المنتصف عن يمينه حورية وعن شماله حسناء ...

و لسان حالها يقول : لايمكن أن تكتمل الصورة بدونه .

يلاحظ شرودها ، يسألها : لماذا لا تأكلين يا أم حسن ؟ تنتبه على صوته

ـ أكلت ما يكفى .

ـ ما يكفى لك أم لابني ؟ يجب أن تأكلى جيدا ، ثم يمد يده ويناولها قطعة لحم ويقربها ليضعها فى فمها فتضحك البنتان فيما تمضغها هى على مضض .

بعد انتهائه من الغذاء قام إلى الحمام ليتوضأ استعدادا لصلاة العصر بينما قامت هى لرفع أطباق الغذاء وغسلها وبينما هى كذلك إذ سمعت منادى القرية عبر مكبر الصوت يعلن عن وفاة أحد أهالى القرية ..

لم تسمع اسم المتوفى جيدا ، طلبت من حورية خفض صوت التلفاز لتتمكن من السماع كان حامد قد أنهى وضوءه وخرج ، تسأله :

ـ هل سمعت المنادى ؟

ـ نعم إنه الحاج موافى .

ـ أبو سعاد .. ؟

يرد مؤكدا :

ـ نعم إنه هو .

تسأذنه في الذهاب لعزاء صديقتها فيأذن لها و يؤكد عليها بأن تحترس لحملها ولا تتأخر ..

ترتدى عباءة سوداء خصصتها لهذا الغرض وتذهب لبيت والد صديقتها لتواسيها فى حزنها على فقد أبيها .

حزنت سعاد علي فقد أبيها و حزنت أكثر لمرض أمها الشديد و المفاجئ عقب وفاة رجلها الذى قضت معه جل عمرها كما تقول بعين دامعة و قلب منفطر لمن حولها . ولم تمض شهور قليلة حتى لحقت به فى مثواه الأخير ..

عادت سعاد بعد وفاة والديها إلى بيتها حزينة لفقدهما فيما ظلت أمينة تتردد عليها تواسيها و تشد من أزرها فى مصابها الذى كانت تخبو جذوته مع الأيام .

ذهبت أمينة برفقة حامد لمتابعة حملها مع الطبيب الذى أخبرهما أن الجنين الآن فى شهره الخامس فسأله حامد وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة أمل إن كان ذكرا أم أنثى ؟

وما لبثت تلك الابتسامة أن خبت عقب رد الطبيب مباشرة ، تجهم وجهه لاحظت أمينة كما لاحظ الطبيب ذلك فأردف قائلا : إنها رزق من عند الله المهم أن نعتنى الآن بصحة الأم .

لم يحاول حامد أن يخفى حزنه وخيبة أمله ، أما هى فقد شعرت بالمسئولية تجاه بناتها وأنها يجب أن تعيش لأجلهن خصوصا أن تلميحاته عن رغبته فى إنجاب الولد الذى سيحمل اسمه واسم عائلته بدأت تتزايد فى الفترة الأخيرة ، كما أن معاملته لها قد تغيرت تماما ، عاد إلى سابق عهده معها ،

تنظر إليه وتقول فى نفسها :

كنت أعلم لماذا كنت ودودا معى ، كنت تأمل أنى أحمل فى أحشائى ذكرا

صارت أكثر حرصا على حياتها عن ذى قبل وبدأت تهتم بصحتها حتى اقترب موعد وضعها ، أخبرها الطبيب أن وضعية الجنين غير مطمئنة ، تتذكر أنها كانت فى ولادتها الأخيرة بين الحياة والموت ،

تتساءل : أستكون تلك المرة بنفس الخطورة وأيهما سيكون أقرب لها .. الحياة أم الموت ؟ وإن كان الموت فماذا سيكون مصير بناتها ؟

حدد الطبيب موعدا لإجراءعملية ولادة قيصرية..

تستيقظ مبكرة ، تجهز حاجياتها فى حقيبة صغيرة بها كل ماقد تحتاج إليه تنتظر وصول أمها التى سترافقها مع حامد إلى المستشفى .

حورية ترسم بينما تلهو حسناء بدميتها ، تصفف شعرها وتلبسها حذاءها الصغير وتسألها فى براءة مقلدة أمها : هل يؤلمك الحذاء ؟

تلاحظها أمينة وتناديها هى وأختها ، تطيل النظر إليهما ثم تضمهما إلى صدرها ، تمطرهما بقبلات حانية وقد دمعت عيناها ، تسألها حورية :

ـ لماذا تبكين يا ماما ..؟

تجيبها : لاشئ فقط أريدك أن تحبى أختك وتعطفى عليها ، ثم تضمهما معا إلى صدرها بقوة وكأنها تود لو تعيدهما إلى داخلها ثانية وهى تحاول جاهدة كبح دموعها حتى لاتنزعجا .

بعدما انتهى من ارتداء ملابسه وارتشاف شايه الذى كانت قد أعدته له منذ دقائق ناداها حامد لينبهها بأن الوقت قد حان .

تتلقى اتصالا هاتفيا من سعاد ينتهى بعد دقائق قليلة تستعلم فيه سعاد عن عنوان المستشفى حتى تتمكن من اللحاق بها والاطمئنان عليها .

تحضر الأم ويذهب الجميع إلى المستشفى ،

يمر الوقت بطيئا حتى جاء صوت بكاء الطفلة الوليدة ليخفف قليلا من وطأة القلق المخيم على وجوه الجميع

بعد حين يخرج الطبيب طالبا من الزوج التوقيع بالموافقة علي عملية استئصال الرحم من أجل إنقاذ حياة الأم ، هى الآن بحالة حرجة ، يوقع الزوج وقد فاضت عينا الأم بالدموع و هى تدعو الله بأن ينجى ابنتها ، أما سعاد فقد كانت جالسة علي أحد المقاعد مسندة رأسها بين يديها و قد دمعت عيناها فى صمت ، فيما ذهب حامد إلى خزينة المستشفى .

مر الوقت بطيئا والجميع فى خوف وترقب ، حتى خرج الطبيب معلنا انتهاء العملية بسلام .

تفتح أمينة عينيها لترى أمها و حامد وسعاد يجلسون حول سريرها يهنئونها على سلامتها ، تحاول أن تستوعب فكرة أنها وضعت وأنها مازالت على قيد الحياة ..

ثم تغمض عينيها ثانية .

يطمئنهم الطبيب أنها بخير و أنه فقط تأثير المخدر .

تعاود فتح عينيها ثانية .. تسأل عن مولودتها ، تتناول أمها لفافة صغيرة من قماش قطنى كانت قد أعدته سلفا يحوى وليدتها ، تدنيها منها ، تتأملها قائلة : حياة ... إنها حياة ياحامد ، يهزرأسه فى إشارة منه على الموافقة .

تعود إلى بيتها تحمل وليدتها فى حنو ، بينما يعود هو واجما صامتا .

لم تمض عدة شهور حتى أخبرها برغبته فى إنجاب الولد ، اندهشت من رغبته تلك متسائلة :

- ألا تعلم أن رحمى قد استؤصل وأنه لم يعد يمكننى الإنجاب ؟!
- لايمكنك أنت .
- ماذا تقصد .؟
- أقصد أنه يمكننى أنا .
- وضح كلامك ياحامد .
- كلامى واضح ولا يحتاج إلى تفسير ، يصمت برهة ثم يشيح ببصره عنها و هو يقول :
- سأتزوج .
- تتزوج !
- نعم أتزوج ، ليس عيبا ولا حراما ..
- إن فعلت هذا تطلقنى .
- لن أطلقك وسأتزوج ، هذا حقى .
- وأنا .. أين حقى ؟
- سأعطيك كل حقوقك الشرعية وسأعدل بينك وبين الزوجة الجديدة .
- وإن كنت لا أقبل أن تأتى لى بضرة ؟
- عليك أن تقبلى لأجل بناتك .

تركت له المكان ودخلت لترضع صغيرتها ، وبقدر ما انزعجت وغضبت من مجرد الفكرة إلا أنها لمحت شعاعا خافتا قد يضئ لها طريق الخروج من سرداب حياتها المظلم لتنعم بالنور والحرية .

تقول فى نفسها إنه إذا فعل فعلته تلك وتزوج فإن هذا سيكون سببا كافيا يدعم موقفها أمام أهلها والمجتمع لطلب الطلاق وقد يسهل وجود زوجة ثانية له أن يستجيب ويطلقها إذا ما أصرت على موقفها .

تلك الأفكار التى راودتها كانت سرها الخاص الذى لم تُطلع عليه أحدا ، قررت أن تظل على موقفها الرافض برغم ثقتها من أن رفضها هذا لن يثنى حامد عن تنفيذ ما انتوى فعله خصوصا وأنها علمت أنه بالفعل بدأ يخطو خطواته الأولى ويبحث عن زوجة ثانية .

عندما أخبرت أمها بعزمه على الزواج من ثانية ثارت الأم على عكس موقف الأب الذى التزم الصمت .

لم يضع حامد الوقت بعدما ضاع الأمل فبدأ فى تجهيز الطابق الثانى وتهيئته لاستقبال العروس الجديدة التى فيما يبدو كان قد وقع اختياره عليها منذ حين ..

قابلت أمينة مايحدث من زوجها بصمت العاجز ، فيما ظل شعاع الأمل الذى كان قد بدا لها يخبو شيئا فشيئا كلما حاصرها ضباب المستقبل و تكالبت عليها الأسئلة و أحبطتها الأجوبة .

أين ستذهب بثلاث فتيات ؟ لن يسعها بيت أبيها و هو المبارك صمتا زواج ابن أخيه

وماذا إذا أنجب حامد من الزوجة الجديدة ذلك الولد المنتظر ..؟

هل تعود بمفردها إلى بيت أبيها كما قدمت بمفردها وتترك صغيراتها لزوجة أب قد لاتحسن معاملتهن ؟

هل يطاوعها قلبها على فعل ذلك ؟ ... كل الخيارات مُرة وكل الحلول موجعة

وبينما هى فى دوامتها تتجرع هذا المرار و ذاك الوجع كان حامد يرتشف من شهد اللذة فى أحضان العروس الجديدة ،

كانت تسمع وقع أقدام مطارداتهم الغرامية من آن لآخر ، لم تطالب بحقها الذى لم تحصل عليه كزوجة منذ شهور لأنها إن لم يمنعها عزوفها عنه فسيمنعها كبرياؤها كما أخبرت سعاد التى كانت تنصحها بطلب الطلاق فى كل مرة لتخبرها أمينة أنها نسيت أو بمعنى أدق« تناست» مشاعرها كامرأة .

هل حقا تصدق أمينة نفسها فيما تقول أم أنها فقط تحاول تصديق مايجب عليها أن تصدقه ؟

هل حقا خبت رغباتها كأنثى بعد أن تحطمت مشاعرها كإنسانة على يد جلمود بشري اسمه حامد الذى كثيرا ماكان يتهمها بالبرود فذهب متخفيا خلف ستار ظاهره الرغبة في إنجاب الولد وباطنه الرغبة في امرأة تشبع نهمه فى ممارسة اللذة بطريقة مشروعة ؟ وإن كان هذا حقه فأين حقها ؟

تلك أمينة تدعى أنها نسيت ، أما سعاد فلم تنس بعد أنها امرأة بلا رجل وبلا ولد وبلا حب ، تقول فى نفسها :

أهكذا تمضى بى السنون ما بين صمت وكآبة ؟

تقول فى نفسها :

الحياة غالية أغلى من أن أفرط فيها بتلك السهولة

انتفضت فجأة تمد يدها تهز كتف صابر الذى عاد يغط فى نومه كسابق عهده ، تهزه بقوة .. يفرك عينيه بظهر راحتيه قائلا بصوت يتخلله التثاؤب :

- ماذا تريدين ..؟
- أريد أن أتحدث معك .
- الآن ..؟
- نعم الآن .
- ماذا حدث ؟ قالها وهو يعتدل نصف جالس ..
- لايهم ما الذى حدث .
- وماذا يهم إذن ؟
- الذى سيحدث .
- وما الذى سيحدث ..؟
- ستطلقنى .
- أطلقك ..!
- نعم تطلقنى .
- وإن قلت لا ..
- لايعنينى ماذا ستقول .

وماذا يعنيك إذن ؟

يعنينى ما سأفعل، سأطلق نفسى منك .

- كيف ؟
- سأخلعك ..
- ماذا تقولين !
- أقول ما سمعت .
- نامى الليلة وغدا يكون لنا حديث آخر.
- لن يكون لى معك « غدا » ياصابر، يجب أن تفهم هذا جيدا .

- ماذا حدث الآن لكل هذا هل أغضبتك فى شيء؟
- أنت تعرف جيدا لماذا أريد الطلاق فدع الأمر يمر بسلام واعلم جيدا أن هذا قرار لارجعة فيه .
- غدا سيكون لى حديث مع أخيك .
- وما شأن أخى بما بيننا ..؟
- هو ولى أمرك الآن .
- أنا لست قاصرا ولن أسمح له أو لك بإرغامى على حياة لا أريدها ، هل يمكنك أن تفسرلى معنى حياتنا معا ، ماالذى يجمع بيننا ؟
- أنا زوجك وأنت زوجتى .
- الحياة الزوجية لها مقومات وتلك لا أظنها قائمة فيما بيننا .
- أتعودين لمثل هذا الكلام ، تتهميننى بالضعف ؟
- أنت أقوى الرجال إن كان هذا يريحك ، لكنه لايريحنى .
- المرأة الخصبة ترتوى من أقل قطرة لكنك دوما تطلبين المزيد .
- أنا امرأة شبقة ولا أصلح لك ، طلقنى إذن ..
- أهذا آخر مالديك ؟
- بقى شئ أخير .
- ماهو ..؟
- ليكن تسريح بإحسان ، أريدك أن تطلقنى بهدوء ، فكر فى كلامى وأنا فى انتظار قسيمة طلاقى فى بيت أبى .

لم ينم صابر فى تلك الليلة وكذا لم تنم سعاد ، ظلت جالسة حتى الصباح تفكر فيما ستكون عليه حياتها القادمة ، بينما ظل هو يحملق فى لا شئ ، لم يحر كا ساكنا حتى أشرقت الشمس ومضى كل فى طريقه دون أن ينطق أحدهما بكلمة .

تركت خلفها سنوات لم تأسف عليها محاولة إنقاذ ما تبقى من عمرها ، عادت إلى بيت أبيها لا تحمل سوى رغبة فى الحياة وعصفورين أخضرين وبعض أصص الزهر تاركة كل أثاث شقتها متنازلة عن كافة حقوقها المادية كزوجة متشبثة بكل حقوقها المعنوية كإنسانة لها الحق فى الحياة والحب .

لم تخش ثورة أخيها ولم يثنها غضبه ولالومه ولااتهاماته لها بالاستهتار بقداسة الزواج و الطلاق وعدم التعقل و..

فما كان منها إلا أن قالت له :

- هذه حياتى أنا وليست حياتك أنت وأنا لست قاصرا بل إنى أكبرك بعامين ولن أسمح لأحد بإرغامى على حياة لا أريدها .

شعر أخوها أنه أمام شخصية قوية طالما كان يستشعر وجودها فى أخته من قبل ، شخصية متمردة لن تساعده سلطته كأخ فى قمعها خصوصا بعد وفاة والديها فما كان منه إلا أن قال لها :

- أنت حرة ولكن لا شأن لى بك فيما بعد ،

طلبت منه مفتاح شقة والديها المغلقة منذ وفاة والدتها ، فأعطاها إياه على مضض .

رتبت أشياءها فى بيت والدها ، وزعت أصص الزهر بعناية ، تحيرت قليلاً فى اختيار المكان الذى ستضع فيه قفص عصفوريها ليقع اختيارها على مكان قرب الشرفة الشرقية علقت القفص وظلت تراقبهما ، تحسهما سعيدين فى مكانهما الجديد ، ربما كانا بالفعل كذلك ، وربما لأنها كانت سعيدة فانعكس إحساسها على كل ماحولها فالزهور صارت أكثر تفتحا وأرق عبيرا .

بعد أن أزالت الغبار عن قطع الأثاث وغيرت الملاءات ، أخذت حماما وخرجت تصفف شعرها ، شعرت بأن الهواء منعش ورقيق ،

إنه هواء معبأ بنسيم الحرية .

نظرت فى ساعة يدها وجدت أن الوقت مناسب لمهاتفة أمينة لتخبرها بما حدث لها ومعها وتعرض عليها زيارتها فى بيتها الجديد فوعدتها أمينة بالزيارة فى أقرب فرصة

ولم يمض الكثير حتى حملت أمينة صغيرتها وذهبت لزيارة صديقتها التى ما إن فتحت لها الباب حتى تلقتها بعناق ودود ثم حملت عنها الصغيرة ودعتها للدخول ، جلستا متجاورتين ، على وجه إحداهن بريق ابتسامة لم ينبعث من شفتيها بقدر ما انبعث من أعماقها ، بريق لم تواره غمامة الحزن على وجه الأخرى التى لاحظت انتشاء صديقتها فتسألها وقد نبتت بسمة صغيرة على شفتيها وكأنها انعكاس تلقائى لابتسامة كبيرة على وجه سعاد قائلة :

- أراك سعيدة

- فتداعبها :

- ترييننى سعيدة أم سعاد .؟

- أراك سعاد التى كنت أعرفها .

- لأنى تركت صابر وعدت إلى نفسى .

- هل وافق على الطلاق ؟

- ليس أمامه سوى أن يوافق إن عاجلا أو آجلا .

- وأخوكِ ماذا فعل ..؟

- ثار وغضب معلنا عدم موافقته على قرار الطلاق .

- وماذا فعلت معه ..؟

- تمسكت بموقفى وواجهته بأنه لايحق له إرغامى على الاستمرار فى حياة لا أرغبها .

- وهل اقتنع بوجهة نظرك ؟
- لا أظن ، ولكن على أى حال فقد أعطانى مفتاح شقة أبى .
- هكذا ببساطة ..؟
- لم يكن أمامه إلا أن يقبل .
- المهم أنى أراك بحال طيبة ..
- الحمد الله .. طمأنينى عليك ..
- الحمل مازال يؤلمنى
- حمل ماذا يا أمينة ؟ هذه حياة بين يديك !
- الحمل الذى أتحدث هنا ... تقولها و تشير إلى قلبها
تبتسم سعاد وتقبض على يد أمينة و تقول بنبرة واثقة :
- كل حمل ولا بد له من وضع .
- متى سأضع حملى إذن ..؟
ربما بعد أسابيع أو شهور وربما سنوات المهم أن لحظة الميلاد آتية وعلينا أن نعيش لتلك اللحظة التى نصنع فيها حياة جديدة ، نحن من يصنع الحياة يا أمينة ونحن من يضيعها
- أشعر أنه لي الحق فى أني أعيش فقط ككائن حي يأكل ويشرب و يتناسل وليس لى الحق أن أحيا كإنسانة لها قلب تحب و تكره ، تقبل و ترفض و تثور ..،
- أعرف أن وجود زوجة أخرى فى حياة زوجك إحساس موجع ومهين .
- المشكلة ليست في وجود ضرة بقدر ماهي في حامد نفسه لم أعد أحتمل الحياة معه أكثر من هذا ، أفكر فى طلب الطلاق لكنى أشفق على بناتى ،
تتنهد أمينة تنهيدة حارة ثم تنظر إلى رضيعتها و تقول :
- نعم بناتى ، حبات قلبى ، لا أعرف إن كن سببا لسعادتى أم سببا لشقائى ، أنا مقيدة بهن ، أعرف أنى لى الحق الآن فى طلب الطلاق ويمكننى مع شئ من الإصرار الحصول عليه ولكن ماذا بعد ..؟
هل أحرمهن من أن يعشن حياة طبيعية بين أبويهما ؟
..هل يمكننى أن أعيش بدونهن وأتركهن يعشن مع زوجة أبيهن ؟
كنت فيما قبل لا أملك الجرأة على طلب الطلاق والآن أنا مضارة بزواجه علىَّ ولى الحق فى إعلان تضررى هذا فى نظر العرف والقانون ولكنى صرت الآن أكثر عجزا عن ذى قبل خصوصا بعدما علمت بحمل ضرتى التى ربما تأتى له بالولد الذى يتمناه وعندئذ ستوضع بناتى فى خانة مهملة من قِبل حامد كما وُضِعتُ أنا من قبل .
تنهمر بضع دمعات من عينى أمينة تمسحها براحة يدها بينما تربت سعاد على كتفها :

- هوني عليك يا أم حياة .. محاولة بذلك جعلها تنظر إلى رضيعتها ربما يمنحها ذلك شيئا من القوة .

ترنو أمينة بعينين دامعتين إلى صغيرتها ثم تمد يديها لتتناولها من سعاد التى كانت مازالت تحملها منذ أن فتحت لها الباب تخرج أحد ثدييها وتقربه إليها ، التقمته الرضيعة بفمها الصغير وأخذت فى امتصاص حليبه .

تواصل أمينة حديثها :

- كنت قد تمنيت لو أنها جاءت ذكرا وكذا حورية وحسناء .

تندهش سعاد من قولها :

- أنت التى تقولين ذلك ..!

- نعم .. تمنيت هذا بحق و من كل قلبى ليس لإرضاء حامد كما ظننتِ و ليس لأنى أفضل البنين على البنات ولكن لأنى لم أكن أريد أن أدفع إلىَ الحياة بمقهورات مثلى ،

- لا أظن أن الحال سيبقى كما هو ، الدنيا تتغير والأفكار أيضا هناك عقول مستنيرة تؤمن بالمساواة الكاملة ، صدقينى غدا يوم آخر ربما تحظى بناتك بما لم تحظى أنت به .

- أتظنين أن هذا سيحدث ..؟

- هذا يجب أن يحدث ، سألقى بحجرى وألقى بحجرك و لتلق كل امرأة حرمت حقا من حقوقها بحجر فى مياه البحيرة الراكدة .

- أى حجر تقصدين ؟

الرفض ، الإصرار ،

- وماذا بعد الرفض ؟ أنا من سيتألم فى كل الحالات صدقينى أنا لا أمل لى

- لا أحب أن أراك يائسة و ضعيفة هكذا ، إن كان الله قد وهب لك حياة فلا تضيعيها

فلن تحصلى على حياة ثانية .

- ما أسهل الكلام و ما أكثر الأمنيات و ما أقسى الواقع !

يسود الصمت برهة تسحب أمينة حلمة ثديها من فم حياة لتلقمها الثدى الآخر و هى تضم كفها الصغير فى قبضة يدها و تقبله فى حنو ثم تقول لسعاد وهى تشير إليها :

- أرأيت .. ؟ إنها ترضع و هى غافية كم هى جميلة .

- أرأيت أنت كم هى ممسكة بثديك بكل قوتها ؟

- أى قوة ... إنها ضعيفة لا قوة لها .

- إنها أقوى منى و منك ..إنها تأخذ بأسباب الحياة وتتشبث بها حتى تنمو و تكبر.

انتهى الحوار و عادت أمينة أدراجها يتردد على سمعها صوت سعاد وعباراتها القوية و هى تخطو باتجاه البيت الذى ما برح يتراءى لها من بعيد كوحش قد فغر فاه متأهبا للانقضاض عليها .

تضع الصغيرة فى فراشها برفق ثم تذهب لتتفقد حورية و حسناء فلا تجدهما ، تنادى عليهما ، تعاود النداء ، بينما تهم بفتح باب الشقة لتسأل عليهما فإذا بها تسمع وقع أقدام صغيرة مهرولة بالطابق الأعلى ،

تصعد السلم حيث شقة الزوجة الجديدة و تعاود النداء وبعد عدة نداءات كانت قد اقتربت خلالها من نهاية السلم كانت حورية قد ركضت نحوها فسألتها :

ـ أين أختك ؟

ـ إنها بالداخل يا ماما .

على الفور نادت أختها فأتت هى الأخرى مهرولة ، أمرتهما بالنزول و عادت إلى شقتها و فى إثرها الفتاتان ، تسألهما :

ما الذى دعاكما للصعود ؟

أجابتاها :

ـ بابا طلب منا الصعود لمساعدة ماما « أميرة » فى تنظيف الشقة .

غضبت أمينة مستنكرة : ماما من ؟ أنا فقط ماما ، ليست لكما سوى أم واحدة ..

ـ حاضر يا ماما

ـ ولا تصعدا ثانية إلا بإذنى .

ـ حاضر يا ماما ، نظرت الفتاتان إلى بعضهما البعض و بدأتا فى ضحك طفولى .

ـ ما الذى يضحككما ؟

ـ انظرى ياماما إلى مؤخرة حورية .. لقد انزلقت ونحن ننظف بلاط الحمام فقالت حورية بدورها :

ـ و حسناء أيضا يا ماما سقطت بجوارى عندما جاءت لتساعدنى على النهوض

تحسست أمينة ملابس بنتيها فوجدتهما مبتلتين فصاحت فيهن غاضبة :

ـ منذ متى و أنتما تنظفان الحمام ؟ إياكما أن تفعلا ذلك ثانية .

لاحظت البنتان نظرة غضب جادة فى عينى أمهما فكفتا عن الضحك ثم أخذتهما الأم لاستبدال ملابسهما المبتلة .

عندما عاد الأب دار بينها و بينه حوار علا خلاله صوت أمينة على غير عادتها و انتهى بأن صفق الباب خلفه و صعد إلى أعلى .

١٤

رضخ صابر لإرادة سعاد و طلقها بعدما باءت محاولاته فى إعادتها بالفشل .
و هاهى الآن و قد حصلت على صك حريتها و استقلت بحياتها ضاربة عرض الحائط بما قد يقال لها أو عنها فى جلسات النميمة .
صارت أكثر نشاطا و إشراقا ، تلاحظ أمينة هذا عليها فتسألها إن كانت لديها نية فى الزواج مستقبلا ؟
ـ نيتى فى الزواج تتوقف على شيء واحد ،
ـ ما هو ؟
ـ الحب .
ـ الحب ؟
ـ و ماذا سيكون غيره ؟
تتنهد أمينة تنهيدة حارة تلحظها سعاد فتسألها :
ـ ألم تجربى الحب ؟
صمتت أمينة لحظة وقد لمعت عيناها :
ـ الحب لمثلى رفاهية لا أقدر على ثمنها .
ـ الحب ليس رفاهية كما تدعين إنه أصل الحياة ، ليتنى أجد من أحب .
ـ واذا وجدته ؟
ـ سأمسك به .
ـ ومن أين لك بالثقة أن من تحبين سيبادلك نفس الشعور ؟
ـ الحب لا يقابل إلا بالحب .
ـ وأنت ؟
ـ أنا ماذا ؟
ـ وما الفائدة إن وجدته ؟
ـ لو عرفت الحب الحقيقى لتحولت حياتك من جحيم إلى جنة و لأمكنك مواجهة العالم كله .
ـ تتكلمين عن الحب كأنك قد عشته .
ـ إنه أجمل إحساس .
ـ أجمل الأشياء دائما تكون أغلى الأشياء و تلك لا يقدر عليها الكثيرون .
ـ الا الحب يقدر عليه كل من كان له قلب ، ألم تجربى الحب ولو مرة ؟
صمتت أمينة و كأنما باغتها السؤال ثم نظرت إلى سعاد محاولة تغيير مجرى

الحوار :

ـ أخذنا الحديث و نسيت رضعة حياة ، قامت إلى مهد صغيرتها ، حملتها و ضمتها إلى صدرها .

صمتت سعاد حين لاحظت ارتباك صديقتها و تهربها من الإجابة فاحترمت رغبتها

في الاحتفاظ بسرها الذى لم يكن يخفى تماما عليها .

أرضعت صغيرتها ثم ناولتها سعاد فداعبتها و قبلت جبينها ، ثم نظرت إلى أمينة متسائلة :

ـ كيف حامد معك ؟

ـ حامد قد وجد بغيته وحقق ما كان يصبو إليه ، كان فيما سبق يأتينى لأنه لم يكن أمامه سواى ، أما اليوم فلمَ يكلف نفسه عناء استجداء مشاعر امرأة استهلكها الحمل و الإنجاب واستنفد تفاصيل أنوثتها طيلة سنوات و يترك امرأة تصغرها بعشر سنوات ؟

ـ لكنك زوجته و لك حق عليه ، ألم يعدك سابقا أنه سيعدل بينكما ؟

ـ يقول إن العدل فى الإنفاق و المبيت فقط ، أما ممارسة الحب فهذا فعل قلبى لا سلطان له عليه .

ـ أهكذا يصرح لك و يجرح مشاعرك ؟

ـ بما يناديك إذن ؟

ـ بأم البنات ..حتى فى الليلة التى يقضيها عندى يولينى ظهره ، أحيانا يمر علينا اليوم و اليومان دون أن يخاطب لسانه لسانى .

ـ وأنت ماذا تفعلين ؟

ـ أوليه ظهرى و أحتضن حياة و هكذا تتوالى الأيام ...

ـ وماذا عن قلبك ؟

هذا نصيبى من الحب .

تنام أمينة ليلتها تلك فترى نفسها تسبح فى خضم بحر متلاطم تكابد الغرق بينما تلوح لعينيها على الشاطئ البعيد أرض تكسوها الخضرة حيث يتراءى لها رجل يبدو من هيئته أنه أحمد واقفا أعلى تلة صغيرة ، مادا ذراعيه باتجاهها كأنما يحفزها على السباحة نحوه عكس التيار ، يعلو الموج و يحول دون رؤيته ، يدفعها التيار بقوة باتجاه الشاطئ الآخر حيث ترى ثلاث يمامات خضروات يتساقطن من أعلى شجرة وقد عصفت الريح بعشهن و تطايرت أعواده فى الهواء ، يعلو الموج و يهبط

تجدف بكلتا ذراعيها بقوة ، يستيقظ حامد و قد صدم وجهه إحدى ذراعيها بينما تجدف به فى الهواء ، ينظر لها فيجدها نائمة تهمهم بكلمات غير مفهومة فيقول فى نفسه :

لقد عاودتها الكوابيس المزعجة .